

فصول في بيان القرآن الكريم



د. محمود أحمد الأطرش

بهدى ولا يباع

بهدى ولا يباع



فصول في بيان القرآن الكريم

د. محمود أحمد الأطرش

الإصدار: 96 (أبريل 2014م / جمادى الأولى 1435هـ)

الإخراج الفني:

محمود الباز

محمود محمد أبو الفضل

د.محمود محمد الأطرش:

من مواليد سوريا، حاصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في علوم القرآن، عمل أستاذاً بالجامعات اليمنية .

شارك في تحقيق تفسير البيضاوي ، وله مؤلفات عديدة ، منها: «الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم»، و«الأحكام الشرعية المتعلقة بقراءة القرآن الكريم»، و«فقه التعامل مع غير المسلمين في ضوء سورة التوبة».. وغيرها.



نهر متعدد ... متجدد



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (+965) - فاكس: 22445465 (+965)

نقال: 99255322 (+965)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

تم طبع هذا الكتاب في هذه السلسلة للمرة الأولى،
ولا يجوز إعادة طبعه أو طبع أجزاء منه بأية وسيلة إلكترونية أو غير
ذلك إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

الطبعة الأولى - دولة الكويت

أبريل 2014 م / جمادى الأولى 1435 هـ

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

كافة الحقوق محفوظة للناشر

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

رقم الإيداع بمركز المعلومات: 2013/118

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 255 / 2013

ردمك: 978-99966-54-04-9

فهرس المحتويات

- ٧ تصدير
- ٩ مقدمة
- ١٣ الفصل الأول: التناوب والزيادة في الحروف
- ١٤ المبحث الأول: مفهوم حروف المعاني واستخداماتها
- ١٨ المبحث الثاني: أهمية حروف المعاني في تفسير النص القرآني
- ٢٥ المبحث الثالث: التناوب في حروف المعاني في القرآن الكريم
- ٣٤ المبحث الرابع: الزيادة في حروف المعاني في القرآن
- ٤٥ الفصل الثاني: الترادف والفروق اللغوية بين المترادفات
- ٤٧ المبحث الأول: الترادف عند اللغويين وفي القرآن الكريم
- ٥٤ المبحث الثاني: الفروق اللغوية بين ألفاظ الحوار
- المبحث الثالث: الفروق اللغوية بين الألفاظ التي تشير لإضعاف رأي الآخر دون رده
- ٦٧ المبحث الرابع: الفروق اللغوية بين ألفاظ الأدلة
- ٧٣ المبحث الخامس: الفروق اللغوية بين ألفاظ الخلاف الناتج عن الحوار
- ٨٩ الفصل الثالث: أسلوب التكرار
- ١٠٧ المبحث الأول: أسلوب التكرار عند اللغويين وفي القرآن الكريم
- ١١٦ المبحث الثاني: قصة نوح عليه السلام بين العهد المكي والعهد المدني
- ١٢٢ المبحث الثالث: قصة نوح عليه السلام حسب ورودها في السور
- ١٤٦ المبحث الرابع: قصة نوح عليه السلام حسب كل حلقة من حلقات القصة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



تصدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

تشكل الدراسات البلاغية واللغوية مداخل معتبرة للكشف عن جوانب من أسرار البيان القرآني، وهي، حين تبتعد عن التعقيدات المدرسية التي ألحقت بها، تساهم في تدبر القرآن الكريم واكتناه أسراره ولطائفه ونكته...

ومع أن المكتبة الإسلامية تضم كنوزاً من المصنفات في بيان القرآن الكريم، لعل المخطوط منها يفوق المطبوع، إلا أن القرآن الكريم «كنز» لا تنقضي عجائبه، وهو «بحر» يمنح قاصديه عطايا وهبات بقدر إخلاصهم وزكاة نفوسهم وسلامة أدواتهم.

ويمثل كتاب «فصول في بيان القرآن الكريم» للباحث محمود أحمد الأطرش ثمرة معايشة بلاغية لبيان القرآن الكريم، وخاصة في موضوعات تتصل بالتناوب والزيادة بين الكلمات والأحرف، وظاهرتي التكرار والترادف، مع الحرص على استخلاص الدلالات واللطائف التي تكشف عن جانب من جوانب إعجاز النظم القرآني.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى جمهور القراء الكرام وطلبة العلوم الشرعية والمهتمين بالبلاغة، إسهاماً منها في تنمية مدارك التدبر وتذوق البيان القرآني، سائلة المولى أن ينفع به، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء...

إنه سميع مجيب...



مقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد أكرم الله عباده المؤمنين بهذا الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وقد تميز هذا الكتاب الكريم من بين الكتب السماوية بأن الله تعالى تكفل بحفظه إلى أن تقوم الساعة، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١) إذ لا يوجد كتاب ديني حفظ من التحريف كما حفظ هذا الكتاب. ولم تحفظ كلماته وألفاظه فقط، بل حفظت أيضاً طريقة أدائه ومخارج حروفه وما ينبغي فيه من إظهار وإقلاب ومدّ ونحوه.

وقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين أعجز الفصحاء والبلغاء بفصاحة ألفاظه وروعة بيانه وأسلوبه الفريد الذي لا يشابهه فيه أسلوب ، لا من نثر ولا من شعر. وكذا مسحته اللفظية الخلافة التي تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي وبراعته الفنية.

وللقرآن الكريم خاصيته اللغوية التي تميزه عن لغة البشر مهما بلغوا في الفصاحة والبيان. ودراسة لغة القرآن الكريم تقتضي التعامل معه على أنه كلام الله وأن كل حرف وكل كلمة جاءت في موضعها اللائق بها، وأنه لا ينوب مكانه ألفاظ أخرى، والتي إذا تغيرت لم تؤد المعنى الذي يقصده القرآن الكريم. كما يقتضي ذلك بيان سر كل حرف وكل كلمة في موضعها الذي لا يؤديه غيرها.

وقد ورد عن البعض علماء اللغة تأويلات لغوية كان لها أثرها على تفسير النص القرآني، اقتضاها مذهبهم اللغوي، وقد أخرجت النص عن ظاهره.

١- الحجر (٩).



مما أدى إلى تفسير النص القرآن تفسيراً معيّنًا. لكن التأمل في ظواهر الآيات يقتضي حمله على ظاهره، وأن سر الإعجاز البياني في حمله على ظاهره، دون صرفه عنه.

وأهم هذه القضايا اللغوية هي: تناوب الحروف وزيادتها، وترادف المفردات، وتكرار العبارات. ولغة القرآن الكريم ودراسة إعجازه وبيانه تقتضي القول بعدم تناوب الحروف وزيادتها، وعدم الترادف بين المفردات، وعدم التكرار بين العبارات. لذلك جاء كل حرف وكل مفردة وكل عبارة في موضعها اللائق بها.

ولعل القضايا التي سنعرض لها في سياق هذه الدراسة تمثل محوراً مهمّاً في مجال الدراسات البيانية للقرآن الكريم، باعتبارها وسيلة لإدراك سرّ الإعجاز البياني للذكر الحكيم، نسأل الله التيسير والسداد.

الفصل الأول
التناوب والزيادة
في حروف المعاني



المبحث الأول

مفهوم حروف المعاني واستخداماتها

معنى كلمة حرف

الحرف من كل شيء يعني طرفه وجانبه، وجمعه أحرف وحروف، وحروف الهجاء هي أطراف الكلمة، والحروف العوامل في النحو هي: أطراف الكلمات الرابطة بعضها ببعض، ومنه الانحراف وهو الميل إلى جانب الشيء، وتحريف الشيء هو بمعنى إحالته إلى جانب الشيء، لا إلى وسطه، أي أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين^(١) قال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(٢) وهو بمعنى تغيير الكلمة عن معناها، إما بتبديلها أو بالتأويلات الفاسدة التي تصرف اللفظ عن معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه الحيل اللفظية.

دلالة الحرف على المعنى:

لأهل النحو رأيان بشأن دلالة الحرف على المعنى، الأول: يرى بأن الحرف يدل على معنى في غيره. والرأي الآخر يرى بأن الحرف يدل على معنى في نفسه ولعله لا يظهر إلا بأن يكون مع غيره. ولعل الخلاف أقرب لأن يكون لفظياً.

أقسام الحروف:

للحروف تقسيمات.. من أهمها: تقسيمها لحروف المباني وحروف المعاني. أما حروف المباني فهي التي تتشكل منها الكلمة ويقابلها حروف المعاني لدورها في إيصال معاني الأفعال إلى الأسماء أو لدلالاتها على معنى، كالإلصاق للباء والاستعلاء لـ «على» وابتداء الغاية لـ «من».

١- المفردات ص ١١٤.

٢- النساء (٤٦).

وتسمية حروف المعاني أطلق عليها حروف من باب التغليب، لأن بعض ما ذكر فيها أسماء، مثل: «كل، متى، من، إذا...» لكن لما كان أكثرها حروفاً سمي الجمع بهذا الاسم.

وأطلق البعض عليها اسم الأدوات، إلا أنه لم يلق رواجاً عند قدامى النحاة، وظلت تسمية حروف المعاني هي الأكثر شيوعاً^(١).

تعريف حروف المعاني ووظيفتها:

يمكن تعريف حروف المعاني بأنها ما كان لها وظيفة نحوية أو صرفية أو صوتية ذات دلالة. ويمكن أن يكون لها وظيفتان، هما:

- وظيفة نحوية: وهي تحقيق الترابط بين مكونات الجملة أو الكلام، سواء كانت عاملة أو غير عاملة.

- وظيفة معنوية دلالية: وهي المساهمة في تحديد دلالة السياق.

أهم المصنفات في حروف المعاني:

- حروف المعاني، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣٤٠هـ) شرح فيه (١٣٧) حرفاً من حروف المعاني، وأدخل فيه ألفاظاً كثيرة لم يعتبرها اللاحقون من حروف المعاني.

- منازل الحروف، لأبي الحسين علي بن عيسى الرماني (ت ٢٨٨هـ) وهو كتيب صغير حصر فيه مصنفه طائفة من حروف المعاني وشواهداها.

- رصف المباني في شرح حروف المعاني، لأحمد بن عبد النور الماقي (ت ٧٠٢هـ) قصره على حروف المعاني، مع الأخذ بالمفهوم الموسع لها، والذي يتجاوز الأدوات.

١- معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، محمد حسن الشريف المقدمة.

- الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ).
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، لابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) ويعتبر هذا الكتاب من المراجع الأساسية لحروف المعاني.
- الإتيان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، بحث معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، ويقصد بها الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف.
- وقد تعرض لمعاني هذه الحروف واستخداماتها في القرآن الكريم، ويمكن اعتباره من أهم مراجع حروف المعاني في القرآن الكريم.
- حروف المعاني بين دقائق النحو ولطائف اللغة، للدكتور محمود سعيد، وهو بحث شامل في حروف المعاني يبين استعمالاتها النحوية والفقهاء.
- حروف المعاني في القرآن الكريم للشريف قصار.
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، لمحمد عبد الخالق عزيمة.
- معجم حروف المعاني في القرآن الكريم، لمحمد حسن الشريف. وتضمن دراسة شاملة لحروف المعاني ومعانيها، وقد طبع في ثلاثة مجلدات في مؤسسة الرسالة، بيروت. وقد نقلنا منه باختصار مبحث حروف المعاني.

المبحث الثاني

أهمية حروف المعاني في تفسير النص القرآني

لحروف المعاني دلالات قوية في بيان معنى النص القرآني، وتحلية سر إعجازه الذي يبين أن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من قول البشر.

ونجد بعض أهل اللغة قد ذهب إلى القول بزيادة بعض الأحرف، ظناً منهم أن المعنى لا يستقيم إلا بزيادته، وهذا خلاف ما هو عليه أهل التحقيق الذين يرون أن في وجود الحرف دلالة يقتضي وجوده لا يتم المعنى إلا به، وذهب بعضهم إلى القول بالترادف ليستقيم بنظرهم المعنى، وهو أمر بعيد أيضاً، حيث يتبين أن لكل حرف استخدامه في مكانه اللائق به ولا يتم المعنى إلا بوجود ذلك الحرف.

يقول الدكتور محمد ديب الجاجي في بيان أهمية حروف المعاني في تفسير النص القرآني: «ولأهمية وظيفية هذه الأدوات والحروف نشير إلى أنه: قلَّ أن تخلو آية من القرآن العظيم من أداة أو حرف منها، إضافة إلى اختلاف مواقعها من الجمل والآيات واختلاف معانيها بسبب من ذلك وغيره، وأثر هذه الاختلافات في دلالتها المؤثرة في معاني الآيات والعبارات. وهذا وحده أساس علم جليل من علوم القرآن العظيم يتم به تحليل دقيق قائم على حصر الوجوه المختلفة لاستعمالات كل حرف أو أداة، لما لذلك من تأثير على المعاني والأساليب، وكشف للفروق الدقيقة بين عبارة وعبارة وأثرها في نفس المتلقي بحيث لا يستطيع الدارس لذلك أن يعرف: أَوْقَعَ مثل هذا الأسلوب في القرآن الكريم أم لا؟ وإذا جاء فهل كان وروده كثيراً أو قليلاً؟، كما يستطيع أن يحتكم إليه في الموازنة بين الأقوال المختلفة، ذلك لأن هذه الأدوات تدل على علاقات لا على مسميات، وإن أكثر الناس يضعون هذه الحروف في غير مواضعها»^(١).

١- النسق القرآني، دراسة أسلوبية ص ٢٥.

وإليك بيان قيمة الحرف وأثره على المعنى:

- قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(١) وقال سبحانه ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(٢).

ففي الحديث عن إيتاء السفهاء أموالهم استخدم حرف الجر «في» فقال: «وارزقوهم فيها»، بينما في إعطاء من حضر قسمة المال استخدم حرف الجر «من» فقال: «فارزقوهم منه» فدل ذلك على معنى مهم وهو يفيد الإشارة إلى المتاجرة بأموال اليتامى لتربح هذه الأموال ويستفيد منها اليتيم ليكون رزقه أي نصيبه من النفقة وما يحتاجه من ربح المال، لا من رأسه.

بينما الكلام يختلف في قسمة المال لمن حضر وليس له نصيب في الميراث فيراد به إعطاؤه جزءاً من المال، وهو ما أفاده حرف «من» المفيد للتبعيض.

قال البيضاوي: «وارزقوهم فيها واكسوهم»، «واجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تجروا فيها وتحصلوا من نفعها ما يحتاجون إليه»^(٣)، وقال: «فارزقوهم منه» «فأعطوهم شيئاً من المقسوم تطيباً لقلوبهم وتصدقاً عليهم»^(٤).

- قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٥).

فاستعمل في الهدى حرف الجر «على» المفيد لمعنى الاستعلاء، بينما في الضلال استعمل حرف الجر «في» الذي يفيد الظرفية، وذلك لدلالة

١- النساء (٥).

٢- النساء (٨).

٣- تفسير البيضاوي (١/ ٢٢٢).

٤- المصدر السابق (١/ ٢٣٥).

٥- سبأ (٢٤).

معنوية، وهي أن صاحب الحق مستعل بهداه يصرف نظره كيف شاء، بينما صاحب الضلال منغمس في ظلام منخفض لا يدري أين يتوجه^(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾^(٢).

وردت هذه الآية في مجال الحديث عن تخلف المنافقين عن الجهاد وتعلياتهم الخبيثة وأنهم يسوؤهم أن ينال النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين حسنة من الظفر والغنيمة وذلك لفرط حسدهم، أما إن أصابهم مصيبة من كسر أو شدة كما حصل في يوم أحد فإنهم يقولون متحججين قد أخذنا أمرنا، أي تلافينا ما يهمننا من الأمر، يقصدون اعتزال المسلمين وعدم الخروج معهم.

فأمر الله رسوله أن يقول لهم رادًا عليهم بأن كل ما أصاب النبي والمسلمين من نصر أو غنيمة، أو عدم ذلك، فكله خير.

والآية تشير إلى معنى وهو أن ما يصيب المسلم من خير أو شر، فكله خير، وهذا أمر لن يكون إلا للمسلم، كما في الحديث: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»^(٣).

والمصائب التي تصيب الإنسان المسلم فيها خير له، وهي نعمة في الحقيقة، ويتبين ذلك من خلال الآتي:

- إن كل مصيبة كان يتصور أن تكون أكبر منها.
- كان يمكن أن تكون المصيبة في الدين، فكانت في الدنيا.
- كان يمكن أن تكون العقوبة في الآخرة، فكانت في الدنيا، ومصائب

١- الإتيان للسيوطي (١٤٥/١).

٢- التوبة (٥١).

٣- رواه مسلم (٢٩٩٩).

الدنيا تهون عن مصائب الآخرة، فمصائب الدنيا عارضة ومصائب الآخرة دائمة.

- هذه المصيبة مكتوبة عليه في أم الكتاب وقد وقعت واستراح منها.
- ثواب مصائب الدنيا في الآخرة أكبر بكثير من أثرها في الدنيا.

قال عمر رضي الله عنه: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم: إذ لم تكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه^(١).

لذلك جاء تعبير الآية يوحي بالمعاني المذكورة فقال: «ما كتب لنا» ولم يقل علينا.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾^(٢) وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾^(٣).

وردت هاتان الآيتان في سورة الفتح التي تحدثت عن أحداث صلح الحديبية والدروس المستفادة من ذلك.

والملاحظ في الآية الأولى التي فيها إنزال السكينة أنه فقد استُخدم حرفُ الجر «في» المفيد للظرفية، بينما في الآية الثانية استخدم حرف الجر «على» فقال: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

والآية الأولى في الحديث عن صلح الحديبية الذي أصابهم بشيء من

١- إحياء علوم الدين للغزالي (١٢٣/٤) بتصرف.

٢- الفتح (٤).

٣- الفتح (١٨).

الإحباط بما كانوا يأملونه من دخول المسجد الحرام فصدّهم المشركون عن ذلك، ثم ما أشيع من خبر مقتل عثمان رضي الله عنه، ثم ما كان من الصلح الذي رأوا فيه إجحافاً كبيراً بحق المسلمين من خلال ذلك الشرط الذي ينص على أن من جاء مرتدّاً من المسلمين إلى المشركين لم يردوه ومن جاء مسلماً من المشركين رده النبي صلى الله عليه وسلم إلى المشركين، فاضطرب المسلمون اضطراباً شديداً.

ولم يكن موقف الصحابة ذلك إلا من حرصهم على المسلمين وعلى هذا الدين، وليس لأمر دنيوي أو قرابة أو مصلحة معينة، فاحتاج الأمر لسكون قوي يهدئ روعهم ويزيد إيمانهم، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أما الموقف الآخر، وهو موقف البيعة تحت الشجرة، فكانوا أقل اضطراباً فهم متحمسون لقتال المشركين وذلك عندما أشيع خبر مقتل عثمان رضي الله عنه، وكانت قريش قد احتبسته عندها ليتشاوروا في كيفية الرد على النبي صلى الله عليه وسلم: فكان الموقف أقل اضطراباً... لذلك قال: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾^(٢). وقوله سبحانه يحكي قول حاشية ملكة سبأ: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾^(٣).

فالآية الأولى بينت أن الأمر لله، وتم استخدام حرف اللام التي تنفيد

١- انظر سياق الحديث حول صلح الحديبية الذي هو موضوع الآيتين في الرحيق المختوم ص ٢٩٤ وما بعدها.

٢- آل عمران (١٥٤).

٣- النمل (٢٣).

معنى التملك، أما الآية الثانية فاستخدم معها «إلى» التي تضيد معنى انتهاء الغاية.

وذلك أن قولهم «والأمر إليك» أي نهايته إليك أو موكلوك إليك، ولو أنهم قالوا: الأمر لك لكانت هي تملكه ملكاً تاماً ولا دخل لهم في تقريره.

- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(١).

وقوله: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(٢).

ففي الآية الأولى لم تذكر الباء في الزبر والكتاب المنير، بينما ذكرت في الثانية مقرونة بكلمتي الزبر والكتاب.

وقد جاءت الآية الأولى في سورة آل عمران في سياق الحديث عن اليهود الذين زعموا أن معجزة الرسول لا تقبل حتى يأتي بقربان تأكله النار، وأن الرد عليهم هو أن الرسل جاؤوا بالأنواع الثلاثة، وهي: البيئات والزبر والكتاب المنير، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالذِّكْرِ الْقَلِيمِ فَمِمَّا قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣)

أما في الآية التي في سورة فاطر التي تكرر فيها ذكر الباء «بالبيئات

١- آل عمران (١٨٤).

٢- فاطر (٢٥).

٣- آل عمران (١٨٢ - ١٨٤).

وبالزبر وبالكتاب»، فذلك يشير إلى تعدد أصناف المعجزات على أصناف الرسل.

قال ابن عاشور: «وقد خولف أيضًا في هذه الآية أسلوب آية آل عمران، إذ قرن كل من «الزبر والكتاب المنير» هنا بالباء، وجرودوا منها في آية آل عمران، وذلك لأن آية آل عمران جرت في سياق زعم اليهود أن لا تقبل معجزة رسول إلا عجة قربان تأكله النار، ف قيل في التفرد ببهتانهم: قد كذبت الرسل الذين جاء الواحد منهم بأصناف المعجزات مثل عيسى عليه السلام، ومن معجزاتهم قرابين تأكلها النار فكذبتموهم. فترك إعادة الباء هنالك إشارة إلى أن الرسل جاؤوا بالأنواع الثلاثة.

ولما كان هنا لتسليمة الرسول صلى الله عليه وسلم ناسب أن يذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أمهم على اختلاف أحوال الرسل فمنهم الذين أتوا بآيات، أي خوارق عادات فقط مثل صالح وهود ولوط. ومنهم من أتوا بالزبر، وهي المواعظ التي يؤمر بكتابتها وزبرها، أي تخطيبتها لتكون محفوظة وتردد على الألسن، كزبور داود وكتب أصحاب الكتب من أنبياء بني إسرائيل، مثل أرمياء وإيلياء. ومنهم من جاؤوا بالكتاب المنير، يعني كتاب الشرائع، مثل إبراهيم وموسى وعيسى. فَذَكَرُ الْبَاءِ مُشِيرًا إِلَى تَوْزِيْعِ أَصْنَافِ الْمَعْجَزَاتِ عَلَى أَصْنَافِ الرُّسُلِ»^(١).

١ - تفسير التحرير والتنوير (١٥٢/٢٢).

المبحث الثالث

التناوب في حروف المعاني في القرآن الكريم

لعلماء اللغة العربية اتجاهاً في قضية تناوب الحروف، فالبعض يذهب إلى القول بالتناوب، وآخرون يرون عدم تناوب الحروف.

ويراد بتناوب الحروف أن الحرف قد يقع موقع غيره فيعطي معنى الحرف الآخر، إذ لا يمكن فهم المعنى إلا بتأويله بمعنى حرف آخر، مثل قوله تعالى يحكي قول فرعون: ﴿وَأَصْلَبَنكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾^(١) أي على جذوع النخل. وقوله: ﴿فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾^(٢) أي عنه. وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾^(٣) أي لا تجهروا عليه بالقول...

وقد ذكر ابن قتيبة في كتابه «تأويل مشكل القرآن» باباً في تناوب الحروف، وذكر أمثلة من القرآن الكريم في تناوب الحروف^(٤). كما ذكر الهروي باباً في كتابه «الأزھية»^(٥) في ذلك. وكذلك فعل ابن جني في كتابه الخصائص^(٦)، وعقد الثعالبي في كتابه «سر العربية» فصلاً مجملاً في وقوع حروف المعنى مواقع بعض^(٧).

وعلى العموم، فإن القول بتناوب الحروف هو مذهب الكوفيين، أما البصريون فيرون عدم تناوب الحروف وأنها على بابها.

ولعل الإشكال في هذه القضية يظهر في ما بعد القول بتناوب الحروف أو عدمه، وهو بتوجيه الكلام إذا تم حمل حروف المعاني على ظاهرها،

١- طه (٧١).

٢- الفرقان (٥٩).

٣- الحجرات (٣).

٤- انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٥٦٧ وما بعدها.

٥- الأزھية ص ٢٧٧ وما بعدها.

٦- الخصائص (٣٠٦/٢).

٧- سر العربية ص ٢٢٢ وما بعدها.

مما قد يضطر البعض للتعسف في تأويل الكلام، وهذا ما جعل ابن هشام في كتابه مغني اللبيب يميل لمذهب الكوفيين، فقال: «مذهب البصريين أن أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس، كما أن أحرف الجزم وأحرف النصب كذلك، وما أوهم ذلك فهو عندهم: إِمَّا مُؤَوَّلٌ تَأْوِيلًا يَقْبَلُهُ اللَّفْظُ، كَمَا قِيلَ ﴿وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾^(١) إن «في» ليست بمعنى «على» ولكن شبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحال في الشيء، وإما على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف، كما ضمن بعضهم شربن في قوله: شربن بماء البحر، معنى روين، وأحسن في «وقد أحسن بي» معنى لطف، وإما على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى. وهذا الأخير هو محمل الباب كله عند أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين، ولا يجعلون ذلك شاذًا، ومذهبهم أقل تعسفًا»^(٢).

لكن الأهم في لغة القرآن الكريم هو: تبيان النكتة البلاغية في استخدام القرآن الكريم ذلك اللفظ وتلك العبارة، لأن فيه سر التعبير القرآني الذي يبين أن هذا الكتاب الكريم معجز بألفاظه من عند الله تعالى، كما أن المعنى لا يتضح به المقصود إلا بذلك اللفظ وتلك العبارة.

ففي قوله تعالى يحكي قول فرعون للسحرة: ﴿وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾^(٣)، لو قلنا بأن «في» بمعنى «على» والمعنى لأصلبكنم على جذوع النخل، لأن الصلب يكون على الجذع وليس في الجذع، لكن يبقى السؤال فلماذا عبر القرآن الكريم بذلك التعبير؟ لقد عبّر بذلك ليدل على نفسية فرعون بأنه يريد أن يصلبهم صلبًا شديدًا.. وكأنه يريد أن يدخلهم في جذوع النخل.

١- طه (٧١) .

٢- مغني اللبيب عن كتب الأعراب (١١١/١).

٣- طه (٧١) .

ثم إنَّ حمل المعنى على ظاهره هو الذي يتفق مع السياق العام للقرآن الكريم، ويبين سر الإعجاز في اختيار الكلمات والحروف.

وإليك أمثلة تؤكد عدم تناوب الحروف:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ﴾^(١).

قال ابن قتيبة: «أي بالهوى، والعرب تقول: رميت عن القوس أي رميت بالقوس»^(٢).

إلا أن إبقاء حرف «عن» على ظاهره هو الأولى، وذلك أن المعنى الأصلي لحرف «عن» هو المجاوزة، ومعناه البعد، وهو يقتضي مجاوزة ما أضيف إليه نحو غيره.

والمعنى أن ما ينطق به النبي صلى الله عليه وسلم ما ينطق به صادرًا عن هواه، إنما هو وحي. وهل المراد به كل نطق أو يراد به القرآن، أو ما يتضمن حكمًا شرعيًا، أو ما له علاقة بتبليغ الوحي؟ الأولى أن يقال: إنه يراد به تبليغ الوحي ما يصدر عن هوى، وليس كل نطق، فإنه اجتهد ثم رجع عن بعض اجتهاداته بوحي أو بما تبين له وجه الصواب.

والنطق أقل من الكلام، فإن المراد به هو «الأصوات المقطعة التي يظهرها اللسان وتعيها الأذان»^(٣).

واستخدام حرف الجر «عن» لإفادة معنى لا يتم لو قيل: ما ينطق بالهوى، وذلك أن استخدام الحرف «عن» أعطى لمعنى النطق معنى الصدور، أي ما يصدر عن حسن نطق بسبب الهوى إنما هو بوحي من الله. قال الألويسي: «والنطق مضمن معنى الصدور، فلذا عدي بعن في قوله

١- النجم (٢).

٢- تأويل مشكل القرآن ص ٥٦٩.

٣- المفردات ص ٤٩٦.

تعالى: ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وقيل: هي بمعنى الباء، وليس بذلك، أي ما يصدر نطقه فيما آتاكم من جهته عز وجل كالقرآن، أو من القرآن عن هوى نفسه ورأيه أصلاً، فإن المراد استمرار النفي^(١).

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾^(٢).

قال ابن قتيبة: «أي مع أموالكم، ومثله: «من أنصاري إلى الله»^(٣) أي مع الله والعرب تقول: الذود إلى الذود إبل، أي مع الذود...»^(٤) أي إن «إلى» قد تقع مكان «مع».

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾^(٥) نهي عن أكل مال اليتيم، فلما نزلت الآيات تحرم أكل مال اليتيم كرهوا مخالطة مال اليتيم بمالهم، مما جعل ولي اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله، فشكوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لما يورثه من حرج قد يؤدي للضرر باليتيم، فنزلت الآية: ﴿وَإِنْ تَحَاطُّوهُمْ فَأَخْرِقُوهُمْ﴾^(٦) فيكون المحرم هو أن يخلط مال اليتيم بماله ويتصرف به تصرفاً يضر اليتيم.

فيكون معنى الآية: لا تأكلوا مال اليتيم حال كونها مضمومة إلى أموالكم، وهذا هو سر التعبير بذلك، وتعدية فعل الأكل بحرف الجر «إلى»، قال الشوكاني: «ذهب جماعة من المفسرين إلى أن المنهي عنه في هذه الآية هو الخلط، فيكون الفعل مضمناً معنى الضم، أي لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم»^(٧)، وقال أبو حيان: ومعنى «إلى أموالكم» قيل: مع أموالكم، وقيل:

١- روح المعاني (٤٦/٢٧).

٢- النساء (٢).

٣- آل عمران (٥٢).

٤- تأويل مشكل القرآن ص ٥٧١ والذود هو: القطيع من الإبل.

٥- النساء (٢).

٦- البقرة (٢٢٠).

٧- فتح القدير (٥٠٢/١).

إلى في موضع الحال، التقدير: مضمومة إلى أموالكم، وقيل: تتعلق بـ«تأكلوا» على معنى التضمنين، أي ولا تضموا أموالهم في الأكل إلى أموالكم»^(١). وقال ابن عاشور: «والأكل استعارة للانتفاع المانع من انتفاع الغير وهو الملك التام، لأن الأكل هو أقوى أحوال الاختصاص بالشيء لأنه يحرزه في داخل جسده ولا مطمع في إرجاعه، وضمن «تأكلوا» معنى تضموا، فلذلك عدي بإلى، أي لا تأكلوها بأن تضموها إلى أموالكم»^(٢).

ولو أنه قال: لا تأكلوا أموالهم مع أموالكم لكان نهياً فقط عن أكلها، لكن لما عدى فعل الأكل بإلى ضمنه معنى الضم فأفاد النهي عن حالة واقعية، مع الإشارة إلى جواز ضمها مع الحفاظ عليها بما يكون فيه نفع لليتيم. والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾^(٣) فما قيل من أن المعنى: مع الله، أي من ينصروني مع نصر الله لي على تأويل وقوع حرف الجر «إلى» مكان «مع».

إلا أن هذا التأويل لا يكشف عن المعنى الحقيقي الذي أراده القرآن الكريم من تضمنين معنى النصر معنى الضم، فلو قال: من ينصروني مع الله لأفاد معنى النصر فقط، إلا أنه أراد معنى النصر مع الضم الذي أفاده التعدي بحرف «إلى» مع معنى انتهاء الغاية وهو نصر دائم حتى النهاية.

قال الألوسي: «والجار والمجرور إما أن يتعلق بمحذوف وقع حالاً من الباء، وهي مفعول به معنى، والمعنى: من ينصروني حال كوني ملتجئاً إلى الله، وإما أن يتعلق بأنصاري مضمناً معنى الإضافة، أي: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله في نصري». ثم قال: «نعم»، كون «إلى» بمعنى «مع» لا يخلو عن شيء،

١- تفسير البحر المحيط (١/١٦٨).

٢- تفسير التحرير والتنوير (٤/١٤).

٣- آل عمران (٥٢).

فقد ذكر الفراء أنها إنما تكون كذلك إذا ضم شيء إلى آخر، نحو: الذود إلى الذود إيل، أي إذا ضمه إليه صار إيلاً...

وقال في الكشف: «لعل الأشبه في معنى الآية - والله تعالى أعلم - أن يحمل على معنى: من ينصرتني منهياً نصره إلى الله تعالى، كما يقتضيه حرف الانتهاء دون تضمين، كأنه عليه السلام طلب منهم أن ينصروه لله تعالى لا لغرض آخر، مدمجاً أن نصرة الله تعالى في نصرة رسوله»^(١).

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٢).

قال ابن قتيبة: «قال الله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٣) أي بأمر الله. وقال تعالى: ﴿يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ﴾^(٤) أي بأمره»^(٥).

ففي قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٦) يراد بهم الملائكة، وقد ورد ذكرهم في الآية بقوله سبحانه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي ملائكة تعقب في حفظه.. كأن بعضهم يعقب بعضاً، أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها^(٧).

ويراد بهم الحفظة على قول أكثر المفسرين^(٨). وفي المراد من حفظه من أمر الله معان كثيرة، قال الشوكاني: «أي من أجل أمر الله»، وقيل: يحفظونه من بأس الله إذا أذنب بالاستمهال له والاستغفار حتى يتوب. قال الفراء: في هذا قولان: أحدهما أنه على التقديم والتأخير، تقديره: له

١- روح المعاني (١٧٥/٣).

٢- الرعد (١١).

٣- الرعد (١١).

٤- غافر (١٥).

٥- تأويل مشكل القرآن ص ٥٧٤.

٦- الرعد (١١).

٧- تفسير البيضاوي (٢٠٠/٢).

٨- زاد المسير ص ٢٢٨.

معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، والثاني: أن كون الحفظة يحفظونه هو ما أمر الله به. قال الزجاج: المعنى: حفظهم إياه من أمر الله، أي مما أمرهم به، لا أنهم يقدر أن يدفعوا أمر الله. قال ابن الأنباري: وفي هذا قول آخر، وهو أن «من» بمعنى الباء، أي يحفظونه بأمر الله. وقيل: إن «من» بمعنى «عن» أي يحفظونه عن أمر الله، بمعنى من عند الله لا من عند أنفسهم، كقوله: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ﴾^(١) أي عن جوع، وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب. وقيل: يحفظونه من الجن^(٢)، وذكر ابن الجوزي معاني أخرى لذلك^(٣).

ولعل الأنسب في مفهوم الآية أن الملائكة تحفظ الإنسان من أمر الله، وهو قدره الذي ينزل على عموم العباد، ويستثنى منهم من شاء الله له ذلك، فينجو من ذلك البلاء بشر تحفظهم الملائكة من البلاء العام. والحفظ: إما هو حفظ قدر، أو هو حفظ تكريم لعباد الله المخلصين، فقد يحصل وباء يموت به صالحون وينجو بعض الفاسقين، وهذا حفظ قدر.

وحمل الآية على معنى أن الملائكة تحفظ البشر من قدر الله حتى لا يعم الجميع أمر أنسب بالآية، ولا داعي للقول بالتناوب ووقوع حرف «من» مكان الباء ليكون المعنى بأمر الله، ولو كان كذلك لما أعطى المعاني الكثيرة التي أفادتها الآية باستخدام حرف الجر «من».

أما قوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾^(٤)، فالمراد بالروح أقوال: وهي القرآن، أو النبوة، أو الوحي، أو جبريل، أو الرحمة^(٥).

١- قريش (٤) .

٢- فتح القدير (٧١/٣) .

٣- زاد المسير (٧٢٩) .

٤- غافر (١٥) .

٥- زاد المسير ص١٢٤١ .

أما حرف الجر «من» فقليل بأنها بيانية، وقيل: هي سببية أو ابتدائية. وعلى معنى أنها بيانية فبمعنى: ناشئاً من أمره. قال الألوسي: وقوله تعالى: «من أمره» قيل: بيان للروح، وفسر بما يتناول الأمر والنهي، وأوثر على لفظ الوحي للإشارة إلى أن اختصاص حياة القلوب بالوحي من جهتي التحلي والتخلي الحاصلين بالامتثال والانتهاز، وعن ابن عباس تفسير الأمر بالقضاء، فجعلت «من» ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع حالاً من الروح أي ناشئاً من أمره، أو صفة له، على رأي من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته، أي الكائن من أمره. وفسره بعضهم بالملك وجعل «من» ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع حالاً أو صفة على ما ذكر آنفاً، وكون الملك مبدأً للوحي لتلقيه عنه، ومن فسر الروح بجبريل عليه السلام قال: «من»: سببية متعلقة بـ«يلقي»، والمعنى: ينزل الروح من أجل تبليغ أمره»^(١).

المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(٢).

قالوا إن الباء تقع مكان «من»، قال ابن قتيبة: «تقول العرب: شربت بماء كذا وكذا، أي من ماء كذا. قال الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٣) و ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(٤) ويكون بمعنى: يشرب بها عباد الله ويشرب منها»^(٥).

فقليل: معنى يشرب بها عباد الله، أي يشرب منها. إلا أن المعنى لو بقي على ظاهره لكان أولى، فقد ذكر ابن الجوزي أن للمفسرين أقوالاً في معنى يشرب بها فقال: «فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يشرب منها. والثاني: يشربها،

١- روح المعاني (٥٦/٢٤)

٢- الإنسان (٦)

٣- المطففين (٢٨)

٤- الإنسان (٦)

٥- تأويل مشكل القرآن ص ٥٧٥

والباء صلة. والثالث: يشرب بها عباد الله الخمر يمزجونها بها»^(١). وقال أبو السعود: «يشرب بها عباد الله» صفة عيناً، أي يشربون بها الخمر، لكونها ممزوجة بها. وقيل: ضمن يشرب معنى يلتذ. وقيل: الباء بمعنى من. وقيل: زائدة، ويعضده قراءة ابن أبي عبله «يشربها عباد الله». وقيل: الضمير للكأس، والمعنى: يشربون العين بتلك الكأس»^(٢).

إلا أن تعدية فعل الشرب بالباء فقال يشرب بها، ولم يقل يشرب منها، فقد أفاد بذلك معاني كثيرة تحتلها العبارة، وهي بمعنى يشرب ملتذاً بها أو ممزوجاً بها، فأفادت معنى آخر لعنى الشرب.

١- زاد المسير ص ١٤٩٧

٢- تفسير أبي السعود (٧٢/٩)

المبحث الرابع

الزيادة في حروف المعاني في القرآن الكريم

ذهب بعض أهل اللغة إلى القول بزيادة بعض الحروف، رأوا أنها لا حاجة لها من حيث الإعراب، أو لا يوجد لها توجيه إعرابي، فإذا سقطت بقي الكلام تاماً، ووجودها وحذفها سواء، كالباء في خبر ليس، فإن قلت: أليس الله بقادر، فالباء زائدة والمعنى أليس الله قادراً.

والبعض يذكر أنها زائدة ويكتفي بذلك مما يؤهم أن وجودها وعدمها سواء كما هو الحال من الناحية الإعرابية، فيقولون: زائد، ويكتفون بذلك، ويذكرون المقولة المشهورة في النحو يقولون:

«خذمني فائدة ما بعد إذا زائدة»

لكن لما كان هذا الأمر في القرآن غير مقبول أن يقال بأن فيه شيئاً زائداً، فذهب البعض للقول بأنها زائدة للتأكيد، ولعلمهم قالوه انطلاقاً من القاعدة: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

إلا أن الأولى بالاعتبار هو حمل الحروف التي قيل بزيادتها على ظاهرها، وبعد البحث والتنقيب في فوائده هذه الحروف وأثرها على المعنى يتبين أن المعنى الذي يريده القرآن لا يتم إلا بوجود ذلك الحرف، ولو حذف لما أعطي المعنى المقصود.

يتحدث الزركشي عما يجب على الناظر في كتاب الله من أمور، ذكر منها تجنب نسبة الزائد للقرآن، فقال: «تجنب لفظ الزائد في كتاب الله تعالى أو التكرار، ولا يجوز إطلاقه إلا بتأويل، كقولهم: الباء زائدة ونحوه، مرادهم أن الكلام لا يختل معناه بحذفها، لا أنه لا فائدة فيه أصلاً، فإن ذلك لا يُحْتَمَلُ مِنْ مُتَكَلِّمٍ، فضلاً عن كلام الحكيم.

وقال ابن الخشاب في «المعتمد»: اختلف في هذه المسألة، فذهب الأكثرون إلى جواز إطلاق الزائد في القرآن، نظرًا إلى أنه نزل بلسان القوم وبتعارفهم، وهو كثير، لأن الزيادة بإزاء الحذف، هذا للاختصار والتخفيف، وهذا للتوكيد والتوطئة.

ومنهم من لا يرى الزيادة في شيء من الكلام، ويقول: هذه الألفاظ المحمولة على الزيادة جاءت لفوائد ومعان تخصصها، فلا أقضي عليها بالزيادة. ونقله عن ابن درستويه.

قال: والتحقيق أنه إن أريد بالزيادة إثبات معنى لا حاجة إليه فباطل، لأنه عبث، فليست الحاجة إلى اللفظ الذي زيد عندها ولا زيادة، كالحاجة إلى الألفاظ التي رأوها مزيدة عليه، وبه يرتفع الخلاف.

وكثير من القدماء يسمون الزائد صلة، وبعضهم يسميه مقحمًا، ويقع ذلك في عبارة مستوية^(١).

أقول: لعل القول بأن حروف الزوائد لا معنى لوجودها ولا فائدة منها أبدًا، قد لا يقول به قائل معتبر، لكن الإشكال في اعتبارها لتأكيد المعنى فقط، وهذا يعني أن جميع حروف الزوائد المختلفة تؤدي معنى واحدًا هو التأكيد فقط، وهذا خلاف المعهود في لغة القرآن الكريم من دقة التعبير واختيار الحروف والكلمات والعبارات كل في موضعه اللائق به، بحيث لا تؤدي عبارة أخرى المراد لو تم تغييرها، وعليه، فإن ما قيل من حروف زائدة لو حذف لما أدى المعنى المراد.

يقول الدكتور محمد ديب الجاجي في كتابه «النسق القرآني - دراسة أسلوبية» «إن القول بزيادة هذه الحروف لتأكيد المعنى لا يكشف عن عمق الدلالة التعبيرية لها في النسق القرآني، وبخاصة إذا كان تقدير المعنى

١- البرهان في علوم القرآن (٢٠٥/١).

المفهوم من النص تتوقف صحته على افتراض حذف هذه الحروف الزائدة، ومثال ذلك ما أشار إليه عدد من المفسرين عند قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدًا إِذْ أَمَرْتُكَ﴾^(١)، حيث قالوا: التقدير، ما منعك أن تسجد، ولا زائدة للتأكيد بدليل ورود قوله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِإِدَّتِي﴾^(٢) ثم عرضوا بعد ذلك الرأي الآخر بأنها ليست زائدة، وعلوه بوجهات نظر متعددة. وبنيت هذه الرؤية على تأويل النص بحيث يفسر معنى الجملة أو الآية ملاحظاً فيه دلالة الحرف هذا وعدم إهمالها.

وعلى بعضهم رأيه هذا اعتماداً على بنية اللغة وقيام بعض عناصرها بالدلالة على غيرها، بحيث يكون تقدير محذوف أولى من حذف مذكور، وأن الإضمار أولى من الحذف، أو باعتبار الحرف دالاً على جملة محذوفة، فلو حذف أيضاً لكان ذلك اختصاراً فيه إجحاف مخل، فإذا كانت هذه الحروف تنوب عما هو أكثر منها من الجمل وغيرها لم يجز أن تنتهك فتحذف.

إضافة إلى آراء تقول بخلو القرآن من الكلمات المقحمة والحروف الزائدة، وينكر على من يستخف بكلمة التأكيد، فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة، لا يبالي أن يكون النص في حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به. والأولى اجتناب لفظ الزيادة في كتاب الله تعالى^(٣).

وعليه، فإن النحاة لما رأوا أن كلمة الزيادة في القرآن لا تتناسب مع قدسيته وإعجازه قالوا بأنه زائد للتأكيد. وهذا الأمر يجعل مختلف الحروف المتنوعة تعطي معنى واحداً هو التأكيد، وهو خلاف الأمر المتناسب مع إعجاز القرآن في استخدام كل حرف وكلمة في مكانه اللائق به.

١- الأعراف (١٢) .

٢- ص (٧٥) .

٣- النسق القرآني ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

وقد تعرض لهذه القضية الأستاذ أحمد بدوي في كتابه «من بلاغه القرآن» بحث قضية الزوائد، وذكر أن النحاة قد أحصوا ما ورد في القرآن الكريم من كلمات زائدة وحصرها في خمسة عشر لفظاً، وهي: «إذ، إذا، إلى، أم، إن، أن، الباء، الفاء، في، الكاف، اللام، لا، ما، من، الواو»^(١) ثم رد القول بزيادتها وبين سر وجود كل حرف في موضعه.

كما اهتم بهذا الموضوع فضل عباس وأخرج كتاباً خاصاً في الزوائد سماه «لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن» وأحصى ما ادعى أنه زائد في كتاب الله، وحصرها في سبع وعشرين كلمة^(٢).

وإليك بعضاً من الأمثلة تبين بطلان القول بالزيادة:

- قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾^(٣) وقوله: ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُجِئَ الْمَوْتُ ﴾^(٤)، وقوله: ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾^(٥).

مما ذكره بعض أهل النحو هو زيادة الباء في خبر ليس. لكن المتأمل يجد أن مجيء الباء في خبر ليس يفيد معنى مهماً في ذلك، وقد تعرض لهذا الموضوع الدكتورة عائشة عبد الرحمن في كتابها «الإعجاز البياني في القرآن» فاستعرضت مواضع مجيء الباء في خبر ليس. فكانت في ثلاثة وعشرين موضعاً أطرد مجيء الباء فيها مقترناً بخبر ليس، في مقابل ثلاث آيات جاء فيها الخبر غير مقترن بالباء، وهذه الآيات هي: ﴿ وَلَا نَقُولُ

١- من بلاغه القرآن ص ٩٥ وما بعدها.

٢- وذلك أن بعضهم ذكر القول بالزيادة في كلمات أو حروف.

٣- الزمر (٣٦).

٤- القيامة (٤٠).

٥- الأنعام (٨٩).

لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴿^(١)﴾ وفي سورة هود: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ^(٢) وفي سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ ^(٣) وهذه المواضع المقام فيها مستغن عن تقرير النفي بالجحد والإنكار، لذا فإن الباء أفادت معنى لا يفيد عدمه.

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ ^(٤): «وأدخلت الباء في خبر «ليس» لتأكيد ذلك النفي، فصار دوام نفي مؤكدة» ^(٥).

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ^(٦).

قالوا: إن الباء زائدة. لكن المعنى لا يستقيم لو قيل ذلك، ومعنى الآية: لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة، أي لا تكونوا سبباً في هلاك أنفسكم بأفعالكم.

ولو تم اعتبار أن الباء زائدة لما استقام المعنى حتى يتم تأويل اليد بمعنى النفس. قال الشوكاني: «والباء في قوله: «بأيديكم» زائدة، والتقدير: ولا تلقوا أيديكم، ومثله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ^(٧)، وقال المبرد: «بأيديكم» أي بأنفسكم، تعبيراً بالبعوض عن الكل، كقوله: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ^(٨) وقيل: هذا مثل مضروب، يقال: «فلان ألقى بيده في أمر كذا إذا استسلم» ^(٩).

١- النساء (٩٤) .

٢- هود (٨) .

٣- الرعد .

٤- الأنعام (٨٩) .

٥- تفسير التحرير والتنوير (٢٠٥/٦) .

٦- البقرة (١٩٥) .

٧- العلق (١٤) .

٨- الشورى (٣٠) .

٩- فتح القدير (٢٦٢/١) .

لكن المتأمل في سياق الآية يجد أنه لا داعي لتلك التأويلات، فالسياق وسبب النزول يشير إلى أن التهلكة هي في ترك الجهاد وترك الإنفاق في سبيل الله والركون إلى الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)، وهو ما ذكره أبو أيوب في سبب النزول، فقال: أنزلت فينا هذه الآية معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه، وقال بعضنا لبعض سرًّا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أموال الناس قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله على نبيه يرد علينا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة: الإقامة في الأموال وإصلاحها وترك الغزو^(٢).

ثم إن المعنى إذا كانت لا تلقوا أيديكم، والأيدي كناية عن النفس فإنها تضيد معنى عدم إهلاك الأنفس. أما لوقيل: المعنى: لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة فتضيد معنى عدم إهلاك الأنفس بسبب منهم وبأيديهم، فهي أبلغ في المفهوم. والله أعلم.

- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾^(٣).

قالوا: الباء زائدة، وتقدير الكلام: فلما سمعت مكرهن. إلا أن معنى الآية يتغير ولا يتضح المعنى المقصود إلا بوجود الباء ودلالاتها على المعنى.

فقول القائل: سمعت هذا وسمعت بهذا يختلف معناهما، فلو قيل: سمعت هذا يعني أن السماع كان مباشرًا من قائله الذي ينسب إليه القول، أما سمعت به فيشير إلى أن السماع كان بصورة غير مباشرة.

١- البقرة (١٩٥) .

٢- رواه أبو داود (٢٥١٢) والترمذي (٢٩٧٢) والنسائي في التفسير (٤٩) والحاكم (٤٨/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

٣- يوسف (٢١) .

وما حصل من امرأة العزيز مع فتاها سمعت به وقد أشيع الخبر بين الناس، ولم تسمع بشكل مباشر من القائلين به.

وفعل السمع يتعدى بنفسه ويمكن تعديته بالباء، لكننا لو نظرنا للآيات التي لم يستخدم فيها الباء فإنها تشير للسمع المباشر المقتضي لاعتبار حضور قائله، ففي قوله تعالى يحكي قول الجن في سماع القرآن: ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾^(١) وقالوا أيضًا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۗ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾^(٢) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَىٰءَ آمَنَّا بِهِ﴾^(٣) فلو كان قولهم: سمعنا بالهدى لكان المعنى أن هناك مقولة مترددة بين الناس لا يعلم قائلها أو مصدرها أو معناها، فهي مقولة فيها شيء من الإبهام، ولهذا استخدمت الباء، مع مثل هذه المقولات، قال تعالى في شأن بني إسرائيل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبُهُمْ مَا هَدَىٰ آلَٰهَٰمْ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^(٤) وقال في شأن قوم نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^(٥).

وعليه، فإن حرف الباء يؤدي معنى لا يؤديه ذلك المعنى لو حذف منه، وحكاية قولها «فلما سمعت بمكرهن» كأنه يريد أن يقول: إن المقولة مترددة بين الناس ولم تسمعها من أحد بشكل مباشر.

- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ﴾ وقوله: ﴿لَيْلًا يَعْلَمَ أَهْلُ

١- الأحقاف (٣٠).

٢- الجن (١).

٣- الجن (١٢).

٤- القصص (٣٦).

٥- المؤمنون (٢٤).

الْكِتَابِ ﴿^(١) وَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ ﴿^(٢) وَقَوْلِهِ: ﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿^(٣).

فقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ ﴿^(٤) قالوا: التقدير: ما منعك أن تسجد، و«لا» زائدة للتأكيد، بدليل ورود قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ ﴿^(٥).

وقيل: ليست زائدة، من وجهين: أحدهما: أن التقدير: ما دعاك إلى ألا تسجد؟ لأن الصارف عن الشيء داع إلى تركه فيشتركان في كونهما من أسباب الفعل. الثاني: أن التقدير ما منعك من ألا تسجد؟ وهذا أقرب مما قبله، لأن فيه بقاء المنع على أصله، وعدم زيادتها أولى ^(٦).

ولا يلزم أن نفسر آية وردت بصيغة بأية أخرى وردت بصيغة مختلفة، بل اللازم هو البحث عن سر التعبير في اختيار الصيغ وتميز كل آية، ثم إن البعد التعبيري والموضوعي يختلف في دلالاته، فقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ تشير إلى الاهتمام والتركيز على بشاعة الجرم الذي فعله إبليس مقابل الأمر الرباني «إذ أمرتك» فاقتضى مجيء «لا» تهويلاً وتضخيماً لجرم هذه المعصية. أما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ فإنها تشير إلى الاهتمام بموقف استخفاف إبليس بعظمة الخلق الذي تمثل في خلق آدم، فاقتضى مجيء «لما» تعظيماً وتقديراً لأهمية الخلق الرباني بحيث يكشف سوء موقف إبليس من ذلك ^(٧).

١- الحديد (٢٩).

٢- طه (٩٢-٩٣).

٣- القيامة (١).

٤- الأعراف (١٢).

٥- ص (٧٥).

٦- انظر البرهان للزركشي (٩٠/٣).

٧- انظر: النسق القرآني لمحمد ديب الجاجي ص ٣٠٩.

- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

ذهب كثير من أهل العلم إلى القول بزيادة الكاف في «كمثله» بل إلى وجوب الزيادة من أجل الهروب من نسبة المثل إلى الله تعالى. إلا أن هذا الأمر لا يستدعي القول بالزيادة، بل إن وجود الكاف في التعبير يعطي معنى لا يعطيه لو حذف. يقول الشيخ محمد عبد الله دراز نافياً أن تكون الكاف زائدة: «أكثر أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف، بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة، فراراً من المحال الفعلي الذي يفضي إليه بقاؤها على معناها الأصلي من التشبيه، إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية الشبيه عن مثل الله، فتكون تسليماً بثبوت المثل له سبحانه، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه.

وقليل منهم من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها، إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال لا نصاً ولا احتمالاً، لأن نفي مِثْلِ المِثْلِ يتبعه في العقل نفي المثل أيضاً»^(٢).

قال الألوسي: «ليس كمثله شيء» نفي للمشابهة من كل وجه، ويدخل في ذلك نفي أن يكون مثله سبحانه شيء يزاوجه عز وجل.. والمراد من مثله ذاته تعالى، فلا فرق بين ليس كذاته شيء وليس كمثله شيء في المعنى، إلا أن الثاني كناية مشتملة على مبالغة، وهي أن المماثلة منفية عن كون مثله وعلى صفته، فكيف عن نفسه. وهذا لا يستلزم وجود المثل، إذ الفرض كاف في المبالغة، ومثل هذا شائع في كلام العرب»^(٣).

نعم، تقول العرب: مثلك لا يفعل هذا، يقصدون أنك لا تفعله من باب

١- الشورى (١١).

٢- النبأ العظيم ص ١٣٢.

٣- روح المعاني (١٨/٢٥).

أولى، أي إذا كان مثلك الذي يتشبه بك وأنت قدوة له لا يفعل ذلك فأنت من باب أولى أنك لا تفعله.

ثم إن في الآية دلالة أخرى وهي نفي أحد من المخلوقات أنه يشبه الله تعالى بالكاف والمثل، أي استخدام أداتي التشبيه الكاف والمثل، وهو يفيد نفي المماثلة التامة التي أفادها لفظ المثل، ونفي المشابهة الجزئية التي أفادها حرف الكاف، وهذا المعنى لا يتأتى لو قيل بأن الكاف زائدة. والله أعلم.

- قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ^(١)﴾.

قالوا إن «ما» في قوله «فيما» زائدة، وتقدير الكلام: فبرحمة من الله لنت لهم، ومثله قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا^(٢)﴾ وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ^(٣)﴾ وغيرها من الآيات.

ففي قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ^(٤)﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن ما زائدة للتأكيد. إلا أن التأمل فيها يجعلها على ظاهرها ولها معنى لا يفيد القول بالزيادة.

قال الألوسي: و«ما» مزيدة للتأكيد، وعليه، أجلة المفسرين، وهو المأثور عن قتادة. وحكى الزجاج الإجماع عليه، وفيه نظر.

فقد قال الأخفش وغيره: يجوز أن تكون نكرة بمعنى شيء، ورحمة بدل منها، وجوز أن تكون صفة لها، وقيل: إنها استهامية للتعجب، والتقدير: فبأي رحمة لنت لهم، والتونين في رحمة على كل تقدير

١- آل عمران (١٥٩).

٢- نوح (٢٥).

٣- فصلت (٢٠).

٤- آل عمران (١٥٩).

للتفخيم، و«من» متعلقة بمحذوف وقع صفة لها، أي فيما رحمة عظيمة كائنة من الله تعالى كنت لين الجانب لهم ولم تغنهم»^(١).

ولوقيل: فبرحمة من الله لأفاد أن اللين إنما هو برحمة منه، إلا أن «ما» أفادت سعة الرحمة، فقال: فيما، أي برحمة عظيمة هائلة لت لهم، أفادته «ما» المفيدة لطول المدة.

- قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾^(٢).

قالوا بأن «من» زائدة، وتقدير الكلام: وفجرنا فيها العيون.

لكن هذا الكلام يخرج الآية عن مضمونها، ولا يعطي المعنى الذي يدل عليه السياق. فإن «من» هنا للتبويض، وتقدير الكلام: فجرنا فيها بعض العيون، وهو ما يكون بالقدر الذي تنتفع به تلك الجنات.

ولو قال: فجرنا العيون لاحتمل معنى الهلاك، لذلك قال في طوفان نوح عليه السلام ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾^(٣).

١- روح المعاني (١٠٥/٤).

٢- يس (٣٤).

٣- القمر (١٢).



الفصل الثاني
الترادف والفروق اللغوية
بين المترادفات

المبحث الأول

الترادف عند اللغويين وفي القرآن الكريم

تعتبر ظاهرة الترادف من أهم أسباب غنى اللغة العربية بالمفردات، فهي أسماء متعددة للشيء الواحد.

ويراد بالترادف تعدد الألفاظ للمعنى الواحد.

وقد اختلفت أنظار علماء اللغة في وجود الترادف وإنكاره في اللغة العربية بين من ينكر وجوده ومن يثبت ذلك.

وقد حصل حوار بين أبي علي الفارسي وابن خالويه في الفرق بين السيف والصارم، قال ابن خالويه: «أحفظ للسيف خمسين اسمًا، فتبسم أبو علي وقال: ما أحفظ له إلا اسمًا واحدًا وهو السيف، فقال ابن خالويه: فأين المهند والصارم، وكذا وكذا؟ فقال أبو علي: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة»^(١)، وقال ابن فارس: «ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة، نحو السيف والمهند والحسام. والذي نقوله في هذا: إن الاسم واحد وهو السيف، وما بعده من الألقاب صفات. ومذهبنا أن كل صفة منها: معناها غير معنى الأخرى»^(٢).

وقال الجرجاني: «الترادف ما كان معناه واحدًا وأسماءه كثيرة، وهو ضد المشترك، أخذًا من الترادف الذي هو ركوب أحد خلف آخر، كأن المعنى مركوب واللفظان راكبان عليه، كالليث والأسد...»^(٣).

والذين أنكروا الترادف بحثوا في الفروق اللغوية بين المترادفات، كالفرق

١- المزهر للسيوطي (٤٠٢/١).

٢- الصاحبي، ص ١١٤.

٣- التعريفات للجرجاني، ص ٢١٠.

بين الغيث والمطر، والخوف والخشية، والمعرفة والعلم، والحسّ والجسّ، والمسّ واللمس، والبصر والنظر، وهكذا...

ومن أبرز مَنْ اهتم ببيان الفروق اللغوية بين المترادفات: أبو هلال العسكري في كتابه «الفروق اللغوية» فذكر في مقدمة الكتاب قائلاً: «ثم إنني ما رأيت نوعاً من العلوم وقتاً من الآداب إلا وقد صُنّف فيه كتب تجمع أطرافه وتنظم أصنافه، إلا الكلام في الفرق بين معان تقاربت حتى أشكل الفرق بينها، نحو العلم والمعرفة، والفتنة والذكاء، والإرادة والمشية، والغضب والسخط»^(١).

وإذا كان لأبي هلال فضل السبق في التأليف في هذا الفن، إلا أن تفريقه بين المترادفات قائم على الاحتجاج العقلي لا اللغوي، وجاء كلامه في بعض الأحيان غامضاً، أو غير مقبول، كما في تفريقه بين السنة والعام، وبين الحلف والقسم، وغيرها^(٢)، كما أن تفريقه بين مفردتين فقط ولم يجمع مختلف المترادفات في باب واحد.

وحرص الثعالبي على إظهار الفروق الدقيقة بين عدد من الألفاظ التي يُظنُّ أنها من المترادفات، فأفرد فصلاً في كتابه «فقه اللغة وسر العربية» سماه: «أشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها».

ومن العلماء من أنكروا وجود الترادف في اللغة أو اللهجة الواحدة، فأما في لغتين أو لهجتين، أو في كل لغة نشأت من عدة لهجات كاللغة العربية، فالترادف أمر طبيعي وغير منكر^(٣).

لكن من التعسف إنكار مطلق الترادف، لأنه ظاهرة طبيعية بسبب تعدد

١- الفروق اللغوية، ص٧.

٢- من الإيجاز اللغوي للقرآن الكريم، للسيد خضر، ص٤٠.

٣- انظر: المعجم المفصل في المترادفات في اللغة العربية، لمجيد طراد، ص٧.

القبائل العربية في الجاهلية. وهذا التنوع من أسباب غنى اللغة العربية بالمفردات، لكن الإشكال في بيان التطابق التام للمترادفات.

أسباب الترادف^(١):

المترادفات في اللغة العربية كثيرة جداً، وتعود أسباب ذلك إلى المعطيات الآتية:

١. انتقال كثير من مفردات اللهجات العربية إلى لهجة قريش، وكثير من هذه المفردات لم تكن موجودة في قريش لوجود نظائرها في لغتها.
٢. أخذ واضعي المعجمات عن لهجات قبائل متعددة كانت مختلفة في بعض مظاهر المفردات.
٣. تدوين واضعي المعجمات كلمات كثيرة كانت مهجورة في الاستعمال ومستبدلاً بها مفردات أخرى.
٤. عدم تمييز واضعي المعجمات بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي.
٥. انتقال كثير من نعوت المسمى الواحد من معنى النعت إلى معنى الاسم الذي تصفه. مثل: الهندي والحسام واليماني...
٦. إن كثيراً من المترادفات ليست في الحقيقة كذلك، بل يدل كل منها على حالة خاصة من المدلول تختلف بعض الاختلاف عن الحالة التي يدل عليها غيره.
٧. انتقال كثير من الألفاظ من غير العربية إلى العربية.
٨. كثرة التصحيف في الكتب العربية القديمة، وبخاصة عندما كان الخط العربي مجرداً من الإعجام والشكل.

١- المصدر السابق، ص ٨٠٧.

الترادف في القرآن الكريم:

إذا كان الترادف ظاهرة لغوية في اللغة العربية، وهو من أسباب غنى اللغة العربية، وإذا كانت العربية تشير إلى مجموع المفردات عند قبائل العرب، فيمكن أن يسمى الشيء عند قبيلة باسم ويسمى عند قبيلة أخرى باسم آخر، ويكون ذلك من تعدد الأسماء للشيء الواحد، وهذا سبب من أسباب وجود المترادفات واختلاف علماء اللغة في وجود الترادف في اللغة العربية بين إثباته وإنكاره.

إلا أن الأمر في لغة القرآن الكريم يختلف فيه عن اللغة العربية التي جمعت مختلف لغات قبائل العرب. أما في لغة القرآن الكريم فللقرآن خاصيته اللغوية، كما أنه معجز بألفاظه، والتي من أهمها: بيان الفروق بين المترادفات واستخدام كل لفظة في مكانها.

وخاصية القرآن تقتضي إنكار الترادف، وهو ما عليه أئمة التحقيق، كالراغب الأصفهاني والزركشي والسيوطي وغيرهم، وهو ما جعل الكاتبة عائشة عبد الرحمن تنفي الترادف في القرآن وتقر بوجوده في اللغة. وهو أمر وجيه، تؤكد مختلف الدراسات القرآنية في هذا المجال.

وإليك أهم أقوال العلماء في نفي الترادف في القرآن الكريم.

- قال الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه «المفردات»: «وَأُتْبِعُ هَذَا الْكِتَابَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَنَسَأَ فِي الْأَجْلِ - بَكْتَابِ نَبِيِّ عَنْ تَحْقِيقِ الْأَلْفَاظِ الْمُرَادِفَةِ عَلَى الْمَعْنَى الْوَاحِدِ وَمَا بَيْنَهَا مِنَ الْفُرُوقِ الْغَامِضَةِ، فَبِذَلِكَ يَظْهَرُ اخْتِصَاصُ كُلِّ خَبَرٍ بِلَفْظٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُرَادِفَةِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ أَخَوَاتِهِ»⁽¹⁾.

- أما الزركشي فإنه ينفي الترادف في القرآن الكريم، وذكر أمثلة فرق بين مفردات يُظنُّ أنها مترادفة وهي ليست كذلك، فقال: «قاعدة في ألفاظ

١ - المفردات، ص٦.



يُظنُّ بها الترادف وليست منه، ولهذا وُزعت بحسب المقامات فلا يقوم مرادفها فيما استعمل فيه مقام الآخر، فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات والقطع بعدم الترادف ما أمكن»^(١).

وقد ذكر الزركشي أمثلة فرق فيها بين الخوف والخشية، والغبطة والمنافسة، والحسد والحقد، والسبيل والطريق، وجاء وأتى، وذهب ومضى، والخطف والتخطف، ومدّ وأمدّ، وسقى وأسقى، وعمل وفعل، والقعود والجلوس، والتمام والكمال، والضياء والنور، والمطر والغيث... وغيرها.

ويقدم تفصيلاً لمثال من ذلك قاله الجويني: «لا يكاد اللغويون يفرقون بين الإعطاء والإتيان، وظهر لي بينهما فرق انبنى عليه بلاغة في كتاب الله، وهو أن الإتيان أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله»^(٢).

ويعد الزركشي من أبرز من فرق بين المفردات التي يظن بها الترادف، وهو لا ينكر فضل أبي هلال العسكري صاحب الفروق اللغوية في هذا المضمار.

وكذلك فعل السيوطي في الإتيان، فعقد بحثاً للتفريق بين المترادفات، فقال: «قاعدة في الألفاظ التي يظن بها الترادف وليست منه، من ذلك الخوف والخشية، لا يكاد اللغوي يفرق بينهما»^(٣) ثم فرق بين الخوف والخشية، والشح والبخل، والسبيل والطريق، وجاء وأتى.. وغيرها من المفردات. وهو كلام كله مختصر من البرهان للزركشي.

وتتحدث الباحثة عائشة عبد الرحمن عن موضوع الترادف، فتتفي وجود الترادف في القرآن، وتقدم دراسة لأمثلة في الموضوع فيها شيء من التمييز،

١- البرهان للزركشي (٧٨/٤).

٢- البرهان (٨٥/٤) وقوله: الإتيان أقوى من الإعطاء، فالأصح أن يقول: الإتياء أقوى.

٣- الإتيان (١٩٤/١).

إذ إنها تستقرئ استخدام المفردة في القرآن، فتبين بذلك قيمة المنهج الإحصائي الاستقرائي لمواضع ورود الكلمة في القرآن الكريم، فهي تنطلق من الأصل اللغوي في استعمال العرب، وترصد استخدام المفردة المدروسة في القرآن كله^(١)، ففي دراستها لكلمة «فأغنى» في سورة الضحى تبين قيمة المنهج الإحصائي الاستقرائي الذي اتبعته في إثبات أن الغنى في القرآن لا يرادف معنى الثراء، خلافاً لما ذهب إليه عدد من المفسرين. وأول ما نلاحظه حين نحتكم إلى القرآن أن الغنى فيه غير مرادف الثراء الذي لم يستعمله القرآن قط، وأسند الغنى إلى غير المال.. والغنى من أسماء الله الحسنى، وقد ورد في القرآن سبع عشرة مرة وليس من أسمائه تعالى «الثرى..»^(٢).

أهم المصنفات في باب الترادف:

- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري.
- الألفاظ المترادفة أو المتقاربة المعنى، لعلي بن عيسى الرمانى.
- فقه اللغة وسر العربية، للثعالبي.
- ما اختلف لفظه واتفق معناه، للأصمعي.
- الترادف في اللغة، لحاكم مالك الزبيدي.
- قاموس المترادفات والمتجانسات، لرفائيل نخلة اليسوعي.
- المترادفات، لعبد الجواد عبد العال وعبد الله الأنصاري.
- معجم المعاني للمترادف والمتوارد والنقيض، لنجيب إسكندر.
- المعجم المفصل في المترادفات في اللغة العربية، لمجيد طراد.

١- انظر: النسق القرآني لمحمد ديب الجاجي ص٢٢٩.

٢- التفسير البياني للقرآن الكريم، لعائشة عبد الرحمن، ص٥٠-٥١.

- نجعة الرائد في المترادف والموارد، لإبراهيم اليازجي.
- من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم - دراسة في ظاهرة الترادف اللفظي، للسيد خضر.

المبحث الثاني:

الفروق اللغوية بين ألفاظ الحوار

أولاً: الحوار

تشير كلمة الحوار في أصل اللغة إلى التردد في الكلام، أي مراجعة الكلام وتبادله بين الطرفين، أو بمعنى إرجاع الكلام إلى الطرف الآخر، وقد استخدم القرآن ذلك، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾^(١) أي ظن أن لن يرجع إلى الله تعالى، تكذيباً للمعاد.^(٢)

قال الفيروز أبادي في القاموس المحيط: «الحور: الرجوع... والمحاورة: الجواب ومراجعة النطق، وتجاوزوا: تراجعوا الكلام بينهم»^(٣).

وقد ورد في القرآن الكريم بهذا المعنى، قال الراغب الأصفهاني في المفردات: الحَوْرُ التردد، إما بالذات وإما بالفكر، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾^(٤) أي لن يبعث... وحر الماء في الغدير تردد فيه، وحر في أمره تحيّر، ومنه المحور للعود الذي تجري عليه البكرة، لتردده... وقوله: نعوذ بالله من الحور بعد الكور، أي من التردد في الأمر بعد المضي فيه، أو من نقصان وتردد في الحال بعد الزيادة فيها... والمحاورة والحوار: المراد في الكلام، ومنه التحاور، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ﴾^(٥).

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة «الحوار» في سورتي المجادلة والكهف،

١- الانشقاق، (١٤) .

٢- تفسير أبي السعود (١١٣/٩) .

٣- القاموس المحيط ص٤٨٧.

٤- الانشقاق، (١٤) .

٥- المجادلة، (١) .

ففي سورة المجادلة قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(١) حيث استخدم القرآن لفظتي الحوار والجدل، وسيأتي الحديث عنه في الفقرة التالية:

وفي سورة الكهف استخدم القرآن الكريم لفظة الحوار في قصة الجنتين، فقال سبحانه: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمْ بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۝٣٢ كَلَّمَا الِجْنَتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تُظِلَّمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٣٦ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۝٣٧﴾^(٢).

والملاحظ في هذه الآيات أنه استخدم كلمة الحوار «وهو يحاوره» ولم يقل يجادله، قال الألوسي: «والمحاورة مراجعة الكلام، من حار إذا رجع، أي يراجعه الكلام في إنكاره البعث وإشراكه بالله تعالى... ثم قال في الموضوع الآخر: وهو يحاوره جملة حالية كالسابقة، وفائدتها: التنبيه من أول الأمر على أن ما يتلوها كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاورة»^(٣).

ولم يذكر الألوسي استخدام فعل الحوار دون الجدل، والظاهر من السياق أن المؤمن الذي كان يعظ صاحبه رأى من صاحبه التكبر والكفر الذي صرح به صاحبه حيث بلغ مبلغاً لا يفيد معه الجدل، لذا لجأ للحوار الذي هو مراجعة الكلام، وهذا ما أشار إليه ابن عاشور حيث قال: ودل

١- المجادلة، (١).

٢- الكهف، (٣٢-٣٧).

٣- روح المعاني (١٥/١٧٥-١٧٦).

فعل المحاورة على أن صاحبه قد وعظه في الإيمان والعمل الصالح، فراجعه الكلام بالفخر عليه والتطاول، شأن أهل الغطرسة والنقائص أن يعدلوا عن المجادلة بالتي هي أحسن إلى إظهار العظمة والكبرياء^(١).

ثانياً: الجدل

تشير كلمة الجدل في اللغة إلى معنى إحكام الفتل، وهو من جدلتُ الحبل، أي أحكمت فتله، يقال: جَدَلَهُ يَجْدُلُهُ: أحكمت فتله^(٢). ثم استخدم في إظهار الأدلة بقصد مغالبة الخصم.

قال الفيومي: «جَدِلَ الرجل جَدَلًا، فهو جَدِلٌ، من باب تعب، إذا اشتدت خصومته، وجدال مجادلة وجدالاً إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، هذا أصله، ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق، وإلا فمذموم»^(٣)، وقال الراغب الأصفهاني: «الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلتُ الحبل أي أحكمتُ فتله، ومنه الجديل، وجدلت البناء أحكمته... ومنه الجدال، فكأنَّ المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه، وقيل: الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة»^(٤).

وَعَرَّفَ الغزالي المجادلة بأنها: عبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتقيقه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه^(٥).

ولعل تعريف الجدل بأنه: إظهار الأدلة بقصد مغالبة الخصم أو إقناعه

١- التحرير والتنوير، (٦٦/١٥).

٢- القاموس المحيط، ص ١٢٦٠.

٣- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ص ٩٣.

٤- المفردات، ص ٨٩.

٥- إحياء علوم الدين، (١٧٣/٢).

بالحجة هو الأولى، وعبارة الراغب الأصفهاني بأنه المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة غير دقيق، لأن المفاوضة من التفويض وهو بمعنى تسليم أمره لغيره، ومنه قوله تعالى حاكياً قول مؤمن آل فرعون ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾^(١) أي أسلم أمري إلى الله^(٢).

وعبارة الغزالي أيضاً بأنه عبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه، عبارة غير دقيقة، حيث عبّر بكلمة قصد إفحام الغير، والقصد يكون بالبينة، أما الجدل فهو ما يظهر من كلام على لسان المتجادلين، وأما عبارته بأنه قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه، فهو غير دقيق أيضاً، حيث استخدم القرآن كلمة الجدل للمرأة التي جادلت النبي صلى الله عليه وسلم ويستبعد أن يكون ذلك منها أنها قصدت تنقيص كلام النبي صلى الله عليه وسلم، إنما كان قصدها إقناعه صلى الله عليه وسلم بحجتها، ثم إن الله سبحانه أمر نبيه بمجادلة أهل الكتاب والتي هي أحسن، ولا يعقل أن يكون ذلك مع وجود اعتبار تنقيص الغير.

واليك بعض الأمثلة:

١- قال تعالى: ﴿الْحِجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾^(٣).

في هذه الآية ورد النهي عن مطلق الجدل، وقد وردت أقوال في شكل الجدل المنهي عنه، فذكر القرطبي أقوالاً في المراد به، وهي: «أن تماري مسلماً حتى تعضبه فينتهي إلى السباب، فأما مذاكرة العلم فلا نهى عنها، وقيل: الجدل السباب، وقيل: اختلاف الناس في أيهم صادق موقف إبراهيم

١- غافر، (٤٤).

٢- تفسير النسفي (٤٨٠/٢).

٣- البقرة، (١٩٧).

عليه السلام، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية حيث كانت قريش تقف في غير موقف سائر العرب ثم يتجادلون بعد ذلك، فالمعنى: لا جدال في مواضع الحج، وقيل: هو أن تقول طائفة الحج اليوم، وتقول أخرى الحج غداً، وقيل: هو المماراة في الشهور، وقيل: هو أن تقول طائفة حجتنا أبر من حجتكم، وقيل: هو الفخر بالآباء»^(١).

وذكر ابن عاشور أن العلماء اتفقوا على أن مدارس العلم وإنكار المنكر ليس من الجدل المنهي عنه، بل المنهي عنه هو ما يجر إلى المغاضبة والمشاتمة وينا في حرمة الحج^(٢).

والملاحظ أنه قد ورد النهي عن مطلق الجدل لأن الجدل في الغالب يوصل إلى المشاحنة والبغضاء حتى لو كان في العلم، ولو تأملنا الخلاف الفقهي والتعصب المذهبي لأدركنا أن كثيراً من الجدل الفقهي ينتهي بشيء من المشاحنة والخلاف، وكذا في إنكار المنكر لمن لم يكن على علم بأمور الشريعة، فكثيراً ما يتم إنكار أمور مختلف في حكمها كمسألة عورة الرجل مثلاً أو كشف وجه المرأة وغيرها من مسائل.

لذلك، فإن نهي القرآن الكريم عن مطلق الجدل هو الأصوب إلا ما تدعو إليه الضرورة وفي إطار لا يفضي إلى النزاع والخلاف.

وذكر الشوكاني أن المراد بالجدل هنا عدة معان فقال: «والمراد به هنا المماراة، وقيل: السباب، وقيل: الفخر بالآباء، والظاهر الأول^(٣) وهو تفسير غير دقيق فالجدال غير المماراة، وسيأتي التفريق بينهما.

٢- قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى

١- الجامع لأحكام القرآن (٢/٤١٠).

٢- التحرير والتنوير (٢/٢٣١).

٣- فتح القدير (١/٢٦٩).

اللَّهُ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾.

في هذه الآية الكريمة استخدم القرآن الكريم لفظتي الجدل والحوار، فنسب إلى المرأة أنها تجادل النبي صلى الله عليه وسلم، ولما نسب الأمر إليهما ذكره بلفظ الحوار، فقال: «تجادلك» و«تحاوُركما».

نزلت هذه الآية في خولة بنت ثعلبة، وقد ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجادله وتشكو أمرها إلى الله تعالى، وكان شكل جدلها وشكواها أنها كلما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد حرمت عليه» تقول: والله ما ذكر طلاقاً، ثم تقول: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، وإن لي صببية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها وتقول: اللهم إنني أشكو إليك^(٢).

والملاحظ في ذلك أنه نسب إليها لفظ الجدل، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قضى في شأنها فكان ينبغي عليها أن تلتزم الأمر لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز جداله فيما أفتى به، ففتواه تشريع، والصحابة فهموا هذا الأمر، لذلك لما كان الأمر في غزوة بدر، قال الحباب بن المنذر: أمنزل أنزلك الله، أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟ أي إذا كان من عند الله فلا جدال فيه ولا مراجعة.

لكن الطبيعة البشرية جعلت المرأة تلح على النبي صلى الله عليه وسلم في أن يجد لها مخرجاً وكانت تقول: ما ذكر طلاقاً، وهذه المرأة امرأة ذات شأن، لذلك كان عمر يكرمها ويستمع لها، ولم يكن جدالها نتيجة مراجعة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نزل حكم الشريعة موافقاً لرأيها حيث اعتبر القرآن أن الظهار ليس طلاقاً.

١- المجادلة، (١).

٢- فتح القدير (١٧٩/٥) والحديث رواه أحمد (٤١٠/٦). وأبو داود (٢٢١٤).

لكنه سبحانه قال: «والله يسمع تحاوركما» ولم يقل تجادلكما، لأنه لم يكن من النبي صلى الله عليه وسلم جدل للمرأة لإقتناعها بالأمر، بل كان يبين لها الحكم الشرعي الذي قضى به، وذلك لأن الظهار كان في الجاهلية طلاقاً فقضى به، لكونه يحتمل الطلاق وغيره^(١).

٢- قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾^(٢).

نسب الله سبحانه وتعالى الجدل إلى إبراهيم عليه السلام، والملاحظ أن جدله كان بعد أن هدأ روعه من خوفه منهم لما نكرهم، ثم بشره ببشارة طيبة، ثم أخذ يجادل، وذكره سبحانه في موضع الثناء على إبراهيم، أي كان جدله بحكم طبيعته بأنه أواه، أي كثير التأوه والتوجع لحال الناس، وهو منيب أي رجع إلى الحق أو تائب إلى الله.

فكيف يسند الجدل إليه؟

لقد ورد في سورة العنكبوت شكل الجدل الذي جادلهم فيه، قال سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنِّي لُوطٌ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ ۗ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾^(٣).

وقد اختلفت أقوال المفسرين في ذلك، فقال ابن عطية: «والمجادلة»: المقابلة في القول والحجج، وكأنها أعم من المخاصمة، فقد يجادل من لا يخاصم^(٤). وقال القرطبي: «يجادلنا» أي يجادل رسلنا، وأضافه إلى

١- روح المعاني (٢/٢٨) التحرير والتنوير (٨/٢٨).

٢- هود (٧٤-٧٥).

٣- العنكبوت (٣١-٣٢).

٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ص ٩٦.

نفسه لأنهم نزلوا بأمره^(١)، وقال ابن عاشور: «المجادلة هنا دعاء ومناجاة سأل بها إبراهيم عليه السلام ربه العفو عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم، وقد تكون المجادلة مع الملائكة، وعديت إلى ضمير الجلالة لأن المقصود من جلال الملائكة التعرض إلى أمر الله بصرف العذاب عن قوم لوط»^(٢). وقال البيضاوي: «يجادل رسلنا في شأنهم، ومجادلته إياهم قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾»^(٣).

ولعل الأولى بالاعتبار ما قاله الألوسي: «يجادلنا في قوم لوط» أي يجادل رسلنا في حالهم وشأنهم، ففيه مجاز في الإسناد، وكانت مجادلته عليه السلام لهم ما قصه الله سبحانه في قوله سبحانه في سورة العنكبوت ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَوْا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فقوله عليه السلام: «إن فيها لوطًا»، مجادلة، وعد ذلك مجادلة لأن مآله على ما قيل: كيف تهلك قرية فيها من هو مؤمن غير مستحق للعذاب، ولذا أجابوه بقولهم ﴿مَنْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتُهُ﴾ وهذا القدر من القول هو المتيقن... وفسر بعضهم المجادلة بطلب الشفاعة، وقيل: هي سؤاله عن العذاب هل هو واقع بهم لا محالة، أم على سبيل الإخافة ليرجعوا إلى الطاعة^(٤).

وقول ابن عاشور أن المراد بالجدل هو الدعاء والمناجاة أمر بعيد.

١- الجامع لأحكام القرآن (٧٢/٩).

٢- التحرير والتنوير (٢٩٩/١١).

٣- العنكبوت (٢٢) وانظر تفسير البيضاوي (١٤١/٢).

٤- روح المعاني (١٠٢/١٢).

ثالثًا: المراء

عرف بعض اللغويين الامتراء بالشك وعرفه آخرون بالجدل وبعضهم جمع بين الشك والجدل، ففي مختار الصحاح عرف الامتراء بالشك. فقال: «ماراه مراء: جادله... والمرية: الشك... والامتراء في الشيء الشك فيه»^(١)، وفي القاموس المحيط قال: المرية: الشك والجدل، وماراه ممرارة ومراء وامتري فيه وتمار: «شك»^(٢)، وفي المصباح المنير عرفه بقوله: «ماريته أماريه ممرارة ومراء: جادلته... ويقال: ماريته أيضًا إذا طعنت في قوله تزييفًا للقول وتصغيرًا للقاتل، ولا يكون المراء إلا اعتراضًا بخلاف الجدل فإنه يكون ابتداءً واعتراضًا، وامتري في أمره: شك، والاسم المرية»^(٣).

أما الراغب الأصفهاني فاعتبر أن الامتراء أمر أخص من الشك وهو المحاجة فيما فيه مرية، فقال: «المرية التردد في الأمر، وهو أخص من الشك... والامتراء والممرارة: المحاجة فيما فيه مرية»^(٤).

والظاهر أن الكلمة فيها معنيان هما الشك والجدل، فالشك تستخدم له كلمة الامتراء، والجدل تستخدم له كلمة المراء، هذا ما أفادته معاجم اللغة.

لكننا لو تأملنا في معنى الكلمة لوجدنا أن تفسير الامتراء بالشك أمر غير دقيق، فلكل من الكلمتين معنى دقيق يغاير الآخر: فالشك هو عبارة عن اعتدال النقيضين دون ترجيح أحدهما على الآخر، قال الراغب: الشك اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين، أو لعدم الأمانة فيهما، والشك ربما كان في الشيء هل هو موجود أو غير موجود، وربما كان في جنسه من أي جنس

١- مختار الصحاح ص ٦٢٢.

٢- القاموس المحيط ص ١٧١٩.

٣- المصباح المنير، ص ٥٧٠.

٤- المفردات ص ٤٦٧.

هو، وربما كان في بعض صفاته، وربما كان في الغرض الذي لأجله أوجد^(١).

أما الامتراء، فقد عرفه أبو هلال العسكري بقوله: «الامتراء هو استخراج الشُّبُه المشكَّلة، ثم كثر حتى سمي الشك مرية»^(٢) واعتبر الراجب الأصفهاني أن الامتراء أخص من الشك ولم يفرق بينهما، إلا أنه عرف الامتراء بأنه المحاجة فيما فيه مرية^(٣).

لكن التأمّل في معنى هذه الكلمة واستخدام القرآن لها يجد أن معنى الامتراء هو التردد في الحق الثابت، فإذا كان الشك هو اعتدال النقيضين، فإن الامتراء هو الشك في الأمر الثابت. والمتأمّل للآيات يجد استخدام القرآن لذلك، كقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٤). وقوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾^(٥).

وعليه، فيكون معنى المراء هو الجدل في الحق الثابت، ويكون الفرق بين الحوار والجدل والمراء: أن الحوار هو مراجعة الكلام وتبادلته بين الطرفين، والجدل هو: إظهار الأدلة بقصد مغالبة الخصم، أما المراء فهو الجدل في الحق الثابت الذي يتفق عليه العقلاء.

وإليك بعضاً من الأمثلة:

- قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(٦).

١- المصدر السابق، ص ٢٦٥.

٢- الفروق اللغوية ص ٨٠.

٣- المفردات، ص ٤٦٧.

٤- البقرة (١٤٧).

٥- السجدة (٢٢).

٦- الكهف (٢٢).

فقد فسر كثير من العلماء المرء هنا بالجدل، قال النسفي: «فلا تمار فيهم: فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف»^(١). وقال البيضاوي: «فلا تجادل في شأن الفتية إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن تقص عليهم ما في القرآن من غير تجهيل لهم والرد عليهم»^(٢) وقال ابن عطية: «قوله «الإمرأ» استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب، سميت مراجعته لهم مرء، ثم قيّد بأنه ظاهر، ففارق المرء الحقيقي المذموم، والمرء مشتق من المرية وهي الشك»^(٣). وقال ابن عاشور: «والتماري تقاعل مشتق من المرية وهي الشك، واشتقاق المفاعلة يدل على أنها إيقاع من الجانبين في الشك، فيؤول إلى معنى المجادلة في المعتقد لإبطاله وهو يفضي إلى الشك فيه، فأطلق المرء على المجادلة بطريق المجاز»^(٤).

وتفسير المرء بالجدل غير دقيق، لذا نجد الألوسي يفرق بينهما بقوله: والممارسة على ما قال الراغب الحاجة فيما مرية أي تردد... وفسرها غير واحد بالمجادلة وهي الحاجة مطلقاً، أي إذا قد وقفت على أن في الخائضين مخطئاً ومصيباً فلا تجادلهم»^(٥).

ولعل الأوّل هو القول إن القرآن الكريم استخدم لفظة المرء ليشير لأمر بلاغي، فإن المرء يقتضي الجدل الذي يشكك الآخر في أمر لا يعلمه المجادل فيه أو لا يعلم حقيقته، لذلك هو جدل لا معنى له أبداً، والجدل هو الذي يكون فيه أحدهما مصيب والآخر مخطئ - ولا يعلم المصيب من المخطئ - فيتم تبادل الحديث للوصول إلى الحقيقة، وقد يكون الطرفان مصيبين من وجه ومخطئين من وجه آخر. ولذلك أذن الله سبحانه بجدال أهل الكتاب ولو كان جدالاً فيه عمق، واشترط أن يكون بالتي هي أحسن، فقال:

١- مدارك التنزيل (١١/٢).

٢- أنوار التنزيل (٢٣٥/٢).

٣- المحرر الوجيز ص ١١٨٥.

٤- التحرير والتنوير (٤٦/١٥).

٥- روح المعاني (٢٤٧/١٥).

﴿وَجَدِلْهُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١). وقال: ﴿وَلَا تُجَدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢). أي بالرفق واللين من غير فضاظة، ونهى سبحانه عن مطلق الجدل في الحج لأنه يورث في الغالب الشحنة والبغضاء، والحج رحلة إيمانية للعبادة.

وفي هذه الآية، لم يصرح القرآن الكريم بعددهم إنما أخبر بأن الله أعلم بعدتهم فقال: «قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل». ولو صرح القرآن بذلك لقطع النزاع في هذه المسألة، إلا أن الهدف من ذلك هو بيان جهلهم بهذا الأمر. ولما لم يصرح فيه القرآن كان الجدل في هذا الأمر مراء، وقد أذن للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يماري مراءً ظاهرًا لا تعمق فيه وهو ما صرح به القرآن بأن الله أعلم بعدتهم ولا يعلمهم إلا قليل علمهم الله تعالى بوحى من الله. وإن كان في الآية إشارة إلى عددهم حيث علق على القولين الأولين بأنهما رجم بالغيب وهو ما يشير إلى ضعفها وترجيح الرأي الأخير.

- قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(١١) أفتَمَرُونَهُ، عَلَى مَا رَأَى^(١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى^(١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى^(١٤).

تشير هذه الآيات إلى نزول جبريل ولقائه بالنبي صلى الله عليه وسلم ورؤية النبي له وإنكار المشركين لذلك، قال الشوكاني: «أي ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه بصره ليلة المعراج»^(٤) وهذا هو الأظهر، حيث قيل بأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه، لكن سياق الآيات يشير إلى الأول.

والملاحظ هنا في هذه الآيات استخدام كلمة المراء «أفتمارونه» وقد فسر بعضهم المراء هنا بالجدل. قال البيضاوي: «أفتمارونه على

١- النحل (١٢٥).

٢- العنكبوت (٤٦).

٣- النجم (١١-١٤).

٤- فتح القدير (١٠٦/٥).

ما يرى» أفتجادلونه عليه، من المرء وهو المجادلة... وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب «أفتمروئه» أي أفتغلبونه في المرء، من ماريته فمريته، أو أفتجدونه، من مرأه حقه إذا جده»^(١) وقال النسفي: «أفتمارونه» أفتجادلونه، من المرء وهو «المجادلة»^(٢) وقال الشوكاني: «أفتمارونه» من المماراة وهي المجادلة والملاحاة، وقرأ حمزة والكسائي «أفتمروئه» بفتح التاء وسكون الميم، أي أفتجدونه، واختار أبو عبيد القراءة الثانية، قال: لأنهم لم يماروه وإنما جحدوه، يقال: مرأه حقه أي جده»^(٣).

وتفسير المرء بمطلق الجدل أمر غير دقيق، فالمرء جدل في حق ثابت رآه النبي صلى الله عليه وسلم بعينه وصدق قلبه، ولذلك سماه مرأه. ثم إن القراءتين بمعنى واحد أو متقارب، فقراءة «أفتمارونه» تشير إلى صيغة المفاعلة في المرء، وهو المجادلة في إنكار ما رآه، أما قراءة «أفتمروئه» فتفيد معنى الإنكار وقد يكون ذلك من غير جدل، قال ابن عاشور: «وقرأ الجمهور «أفتمارونه» من المماراة، وهي الملاحاة والمجادلة في الإبطال، وقرأ حمزة والكسائي وخلف «أفتمروئه» بفتح الفوقية وسكون الميم مضارع مرأه إذا جده، أي أفتجدونه أيضاً فيما رأى، ومعنى القراءتين متقارب»^(٤).

وإذا تبين هذا المعنى عرف معنى الحديث «المرء في القرآن كفر»^(٥) فيكون المعنى هو الجدل المشكك في القرآن، كأن يشكك في ثوابته أو يدعي تناقضه أو نقصانه أو غير ذلك، أما تبادل الرأي لاستخلاص العبرة والعظة والوصول إلى المعنى الصحيح فليس مرأه.

١- أنوار التنزيل (٢٢٧/٢).

٢- مدارك التنزيل (٦١٣/٢).

٣- فتح القدير (١٠٦/٥).

٤- التحرير والتنوير (١٠٥/٢٧).

٥- رواه أبو داود (٤٧٠٣) وابن حبان (١٤٦٤) ورواه الحاكم (٢٢٣/٢) والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

المبحث الثالث

الفروق اللغوية بين الألفاظ التي تشير لإضعاف رأي الآخر دون رده

أولاً: اللوم

عرف اللغويون اللوم بأنه العذل، ويراد به الإنكار على الآخر في تصرفاته ففي مختار الصحاح فسر اللوم العذل واللائمة الملامة وتلاوموا أي لام بعضهم بعضاً، وفي المصباح المنير: «لامه لومًا عدله فهو ملوم على النقص»^(١).

قال الراغب الأصفهاني: «اللوم عذل الإنسان بنسبته إلى ما فيه لوم يقال لمته فهو ملوم، قال: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَتُلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢)، ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾^(٣)، فإنه ذكر اللوم تشبيهاً على أنه إذا لم يلاموا لم يفعل بهم ما فوق اللوم. والتلاوم أن يلوم بعضهم بعضاً، وقوله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(٤). قيل: هي النفس التي اكتسبت بعض الفضيلة فتلوم صاحبها إذا ارتكب مكروهاً، فهي دون النفس المطمئنة، وقيل: بل هي النفس التي قد اطمأنت في ذاتها وترشحت لتأديب غيرها، فهي فوق النفس المطمئنة»^(٥).

فاللوم هو إنكار على الآخر لما يقع منه من نقص أو تضريط، وهو أشد أنواع التأنيب وأكثرها قسوة، ودونه لفظ العتاب الذي هو لوم في تسخط^(٦). قال ابن عاشور: «اللوم إنكار متوسط على فعل أو قول، وهو دون التوبيخ وفوق

١- مختار الصحاح ص ٦٠٨، المصباح المنير ص ٥٦٠، بتصرف.

٢- إبراهيم (٢٢).

٣- المؤمنون (٦).

٤- القيامة (٢).

٥- المفردات ص ٤٥٦، بتصرف.

٦- المصباح المنير ص ٣٩١.

العتاب»^(١) فالترتيب إذاً: العتاب ثم اللوم ثم التوبيخ، والتوبيخ هو التعبير بمنقصة شديدة.

وذكر ابن عاشور أن اللوم منه ما هو شديد كالتقريع، ومنه ما هو خفيف، واللائم منه ما هو مخيف، ومنه ما هو حبيب^(٢).

والمتأمل في الآيات القرآنية يجد أن اللوم استخدم للإنكار على فعل أمور ليست يسيرة، إليك بيانها:

١- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(٤).

فالآية الأولى فيها تحذير في جعل إله آخر مع الله، وإلا فيكون ملومًا مدحورًا، وفي الآية الثانية أمر بالتوسط بالإنفاق وعدم البخل الذي هو عدم تأدية الحقوق الواجبة كإطعام المساكين، وعدم الإسراف الذي هو إنفاق المال بطريق غير مشروع، وكلاهما اعتداء على حقوق الفقراء والمال مال الله تعالى، وكلاهما أمر خطير، لكن الأول أخطر بكثير ولا شك، وكلاهما يستحق فاعله اللوم.

والملوم هو الذي يأتي بما يلام عليه، حيث وصف به نبي الله يونس عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٥) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ^(٦) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ^(٧) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ^(٨).

١- التحرير والتوير (٨٢/٢٩).

٢- المصدر السابق (١٣٧/٥).

٣- الإسراء (٣٩).

٤- الإسراء (٢٩).

٥- الصافات (١٤٢/١٣٩).

وقال: ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ مُرْكِبُهُ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ فَبَدَذْنَهُمْ فِي الْأَيْمِ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾^(١)، لفظ ملِيم وصف به يونس عليه السلام ووصف به فرعون الخبيث، والفرق بينهما شاسع جدًا.

ثانيًا: التثريب

يفيد معنى التثريب اللوم الشديد بالذنب والتقصير، ففي مختار الصحاح قال: «التثريب التعيير والاستقصاء في اللوم، وثرِب عليه تثريبًا: قَبَّح عليه فعله»^(٢). وفي القاموس المحيط: أثربه لامه وعيَّره بذنبه^(٣). وفي المصباح المنير: ثرب عليه يثرب: عتب ولام، وثرَّب بالتشديد: مبالغة وتكثير^(٤).

وتفسيره في المصباح المنير بالعتب واللوم غير دقيق، فإن التثريب أشد منهما، قال الراغب: التثريب: التقرع والتقهير بالذنب^(٥).

فالتثريب أمر أشد من اللوم فإن فيه معنى استمرار التعيير بالذنب وإن كان قد تاب منه العبد، وإذا تم نفيه فلا يعني نفي اللوم والعتاب، ولذلك ورد النهي عن التثريب للأمة التي زنت إذا أقيم عليها الحد، ففي الحديث: «إذا زنت أمة أحدكم فليضربها بكتاب الله، لا يثرب عليها....»^(٦) أي لا يعيِّرُها بذنبها بعد أن أقيم عليها الحد، لأن الحدود تكفر الذنوب.

وقد ورد التثريب في مكان واحد في القرآن الكريم، وهو في قول يوسف

١- الذاريات (٤٠/٣٨).

٢- مختار الصحاح ص ٨٣.

٣- القاموس المحيط ص ٨٠.

٤- المصباح المنير ص ٨١.

٥- المفردات ص ٧٩.

٦- رواه أبو داود (٤٤٧١) والدارقطني (١٦١/٣).

عليه السلام لإخوته لما اعتذروا إليه معترفين بخطئهم: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ
ءَاثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ
الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩١﴾^(١).

والظاهر أن اعترافهم بالخطأ بعدما علموا مكانته، فهم الذين
قالوا من قبل ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا
لَخَطِيئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩١﴾^(٢). ولذلك لما طلبوا من أيهم الاستغفار أجله
قائلاً: «سوف أستغفر لكم ربي»^(٣) قيل: أجله لوقت السحر أو ليوم الجمعة
أو ليتأكد صدق توبتهم أو ليتعرف على صفح يوسف عنهم^(٤). والمهم
هو: أن التثريب هو التعيير بالذنب، وهو أشد من اللوم والعتاب.

ثالثاً: التنفيد

يرى كثيرون أن التنفيد من الفند وهو الفساد، ويذهب البعض إلى أن
أصله هو الكذب، قال في مختار الصحاح: «الفند - بفتحين - الكذب، وهو
أيضاً ضعف الرأي من الهرم، والفعل منهما أفند، والتنفيد: اللوم وتضعيف
الرأي»^(٥). وفي القاموس المحيط قال: «الفند - بالكسر - الجبل العظيم
أو قطعة منه طولاً.... وبالتحريك: الخرف، وإنكار العقل لهرم أو مرض،
والخطأ في القول والرأي، والكذب»^(٦)، وذكر ابن عطية أن التنفيد في اللغة
ردّ الرأي، ويقال: أفند الدهر فلاناً إذا أفسده. ثم نقل عن القاضي

١- يوسف (٩١ - ٩٢) .

٢- يوسف (٧٧) .

٣- يوسف (٩٨) .

٤- مدارك التنزيل (١/٦٢٣) .

٥- مختار الصحاح ص ٥١٣ .

٦- القاموس المحيط ص ٣٩٢ .

أبي محمد قوله: التفتيد يقع إما لجهل المفند وإما لهوى غلبه وإما لكذبه وإما لضعفه وعجزه لذهاب عقله وهرمه. ثم ذكر قول الطبري أن أصل التفتيد الإفساد^(١).

لكن الراغب الأصفهاني حدد معنى التفتيد بأنه ضعف الرأي واستبعد أن يكون تفسيره بمعنى اللوم، فقال: «التفتيد: نسبة الإنسان إلى الفند وهو ضعف الرأي، قال: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفْتِدُونَ﴾^(٢) قيل: أن تلوموني، وحقيقته ما ذكرت، والإفتاد أن يظهر من الإنسان ذلك، والفند شمراخ^(٣) الجبل وبه سمي الرجل فنداً»^(٤).

وكلمة التفتيد وردت في مكان واحد في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفْتِدُونَ﴾^(٥) قال النسفي في معنى تفتدون: «التفتيد: النسبة إلى الفند، وهو الخرف وإنكار العقل من هرم»^(٦)، ومثله قال البيضاوي^(٧). ونقل ابن عطية أقوال السلف في ذلك فقال: «قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: معناه تسفهون، وقال ابن عباس، رضي الله عنهما أيضاً: تجهلون، وقال ابن جبير وعطاء: معناه تكذبون، وقال ابن إسحاق: معناه تصعّمون، وقال ابن زيد ومجاهد: معناه تقولون ذهب عقلك، وقال الحسن: معناه تهرّمون. والذي يشبه أن تفتيدهم ليعقوب عليه السلام إنما كان لأنهم كانوا يعتقدون أن هواه قد غلبه في جانب يوسف

١- المحرر الوجيز ص ١٠١٨.

٢- يوسف (٩٤).

٣- الشمراخ: رأس الجبل وأعلامه. لسان العرب، ابن منظور، مادة «شمراخ».

٤- المفردات ص ٣٨٦.

٥- يوسف (٩٤-٩٥).

٦- مدارك التنزيل (١/٦٢٣).

٧- أنوار التنزيل (٢/١٩٠).

عليه السلام. قال الطبري: أصل التنفيد الإفساد^(١)، وقال ابن عاشور: «والتنفيد: النسبة للفند - بفتحين - وهو اختلال العقل من الخرف»^(٢).

والأولى في تفسير التنفيد هو ما ذهب إليه الراغب من أنه إضعاف الرأي، لأن اتهامهم ليعقوب عليه السلام بضعف الرأي إنما هو قديم بسبب محبته ليوسف، لذلك قالوا له: إنك لفي ضلالك القديم، أي كانوا يتهمونهم بالضلال ويقصدون ضلال الرأي وعدم صوابه في رؤيتهم بأن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ اللَّهِ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣). وهو أمر غير ناشئ عن الهرم أو التقدم في السن، لذلك يبعد من فسر التنفيد بأنه الخرف وإنكار العقل من الهرم.

لذلك، فمعنى التنفيد هو بيان عدم استناده إلى دليل، وهو ما يتفق مع المعنى اللغوي، فإن الفند هو الجبل أو القطعة منه طولاً، والتنفيد إزالة الفند ليستقط.

١- المحرر الوجيز ص ١٠١٨.

٢- التحرير والتوير (١١٦/١٢).

٣- يوسف (٨).

المبحث الرابع

الفروق اللغوية بين ألفاظ الأدلة

أولاً: الدليل

الدليل في الأصل هو ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، وهو المرشد والكاشف، قال في مختار الصحاح: «الدليل: ما يستدل به، والدليل: الدال، وقد دلّه على الطريق يدلّه دلالة - بفتح الدال وكسرهما، قال أبو عبيد: الدلّ قريب المعنى من الهدّي»^(١). وفي المصباح المنير قال: «دللت على الشيء وإليه، والاسم: الدلالة - بفتح الدال وكسرهما - واسم الفاعل: دالّ ودليل، وهو المرشد والكاشف»^(٢).

وتعريف الراغب الأصفهاني هو الأوضح، فقد قال: «الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات والرموز والكتابة والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك بقصد ممن يجعله دلالة أو لم يكن بقصد، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي، قال تعالى: ﴿مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾^(٣). أصل الدلالة مصدر كالكناية والأمارة، والدالّ من حصل منه ذلك، والدليل في المبالغة، كعالم وعليم وقادر وقدير، ثم يسمى الدال والدليل دلالة كتسمية الشيء بمصدره»^(٤).

والمتتبع لآيات القرآن واستخدامها فعل «دلّ» يجد أنه يشير لمعنى التعريف بشيء مجهول للمخاطب. وإليك بيانه:

١- مختار الصحاح ص ٢٠٩، بتصرف.

٢- المصباح المنير ص ١٩٩، بتصرف.

٣- سبأ (١٤).

٤- المفردات ص ١٧١.

١- قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِئُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾^(١). فموت سليمان عليه السلام مجهول حين وقع وما عرفوا ذلك إلا من خلال دابة الأرض تأكل منسأته أي عصاه التي كان يتوكأ عليها. لذلك قال ابن عاشور: «والدلالة: الإشعار بأمر خفي»^(٢).

والدلالة غير التعريف، وذلك أن المعرفة هي التوصل إلى معلوم من خلال العلامات الظاهرة، ولهذا قال: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾^(٣). وقال: ﴿ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾^(٤). أما الدلالة فهي التوصل إلى معرفة شيء علاماته غير ظاهرة.

٢- قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَحْرٍ مَجِيدٍ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾^(٥). قال ابن عاشور: «وجيء بفعل «أدلکم علی» لإفادة ما يذكر بعده من الأشياء التي لا يهتدى إليها بسهولة»^(٦).

وعليه، فالدلالة اسم فعله دلّ، وهو ما يفيد الوصول إلى أمر خفي غير ظاهر تحتاج إلى علم أو جهد، والدليل هو ما يتم التوصل به لأمر خفي غير ظاهر لا يمكن التوصل إليه بسهولة، بخلاف التعريف فإن علاماته ظاهرة، ولهذا قال في أمر الجنة ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾.

١- سيبأ (١٤).

٢- التحرير والتنوير (٣٢/٢٢).

٣- محمد (٣٠).

٤- محمد (٣٠).

٥- الصف (١٠).

٦- التحرير والتنوير (١٧٢/٢٨).

ثانياً: الآية

تشير المعاجم اللغوية إلى أن معنى الآية هو العلامة، وقد تفيد معنى العبرة^(١). وعرفها الراغب الأصفهاني بأنها العلامة الظاهرة، فقال: «والآية هي العلامة الظاهرة، وحقيقته: لكل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته، إذ كان حكمها سواء، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات... واشتقاق الآية إما من أي، فإنها هي تبين أيًا من أي، والصحيح أنها مشتقة من التأني الذي هو التثبت والإقامة على الشيء»^(٢).

فالآية هي العلامة الظاهرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ كَشَبَهْتُمْ فَلُوْبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٣). فالقرآن يسجل تلاعبهم بالألفاظ وجحودهم في ذلك، حيث طلبوا أن يكلمهم الله أو أنهم يريدون آية أي علامة ظاهرة ليؤمنوا، وفي مضمون كلامهم بأن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ليس فيه علامة ظاهرة على بعثه، أي أن أدلته غير واضحة، وحالتهم مثل حالة المستهتر بالآخر يقول له: أنت ليس لديك أي دليل مقنع وأريد منك أن تعطيني دليلاً واحداً يبلغ حد القطع، ولذلك اكتفوا بطلب آية. وجاء لفظ «آية» منكرًا غير معرف ليقولوا: نؤمن بأي آية كانت.

لكنهم غير صادقين في طلبهم ذلك، لذلك رد عليهم القرآن بأنهم لم تأتهم آية واحدة فقط بل جاءتهم آيات بينات واضحات، فرد عليهم «قد بينا الآيات لقوم يوقنون».

١- مختار الصحاح ص ٢٧، المصباح المنير ص ٢٢.

٢- المفردات ص ٢٣.

٣- البقرة (١١٨).

فقد تم بيان جميع الآيات فلا يوجد لهم أي عذر في كلامهم إنما هو مغالطة وتلاعب بالألفاظ. كما بين سبحانه في مكان آخر بأنه صلى الله عليه وسلم لو أتاهم بكل الآيات لم يؤمنوا، فقال: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ...﴾^(١).

وقد فسر بعض العلماء كلمة الآية بالحجة فقال البيضاوي: «أو تأتينا آية» حجة على صدقك... ثم قال: وفيه إشارة إلى أنهم ما قالوا ذلك لخفاء في الآيات أو لطلب مزيد اليقين، وإنما قالوه عتواً وعتاداً»^(٢) وقال الألوسي: «أو تأتينا آية» أي حجة على صدقك وهو جحود منهم قاتلهم الله تعالى، لما أتاهم من الآيات البينات والحجج الباهرات التي تخر لها صمّ الجبال»^(٣).

إلا أن معنى الآية غير الحجة، فالحجة أقوى في الدلالة، فلذلك تم التعبير بكلمة آية على الأدلة الظاهرة الواضحة، كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾^(٤). قال أبو السعود: «﴿لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ لمن وراءك علامة، أو تكون عبرة ونكالا من الطفيان أو حجة تدلهم على أن الإنسان وإن بلغ الغاية القصوى من عظم الشأن وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور»^(٥)، وفسرها الألوسي بمعنى العبرة والنكال أو الحجة»^(٦).

ولعل القول بأن المراد بقوله «آية» العبرة أو الحجة قول غير دقيق، والأصح أن يراد به ما هو على ظاهره، وهو العلامة الظاهرة الواضحة على كيفية

١- البقرة (١٤٥).

٢- أنوار التنزيل (١٣٣/١).

٣- روح المعاني (٢٧٠/١).

٤- يونس (٩٢).

٥- إرشاد العقل السليم (١٧٤/٤).

٦- روح المعاني (١٨٤/١١).

موته، وعلى أنه قد مات لأنه كان يدعى الألوهية، فلو غرق وبقيت جثته لاحتمل أن يقول قائل بأنه لم يموت، وغير ذلك من الاحتمالات... لكنه يريد أن يكون دليلاً ظاهراً، وهو غير الحجة أيضاً.

ومنه قوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾^(١). وغيرها من الآيات.

ثالثاً: البينة

قد ترد كلمة آية مجردة عن أي وصف وأحياناً ترد موصوفة بالبينة، وأحياناً ترد كلمة بيّنة أو بينات دون كلمة آية.

فالبيان معناه التوضيح، ففي مختار الصحاح: البيان ما يتبين به الشيء من الدلالة وغيرها، وبان الشيء يبين بياناً اتضح... والتبيين: الإيضاح. وقد ورد مثل هذا المعنى في المصباح المنير فقال: «بان الأمر يبين فهو بائن... كلها بمعنى الوضوح والانكشاف»^(٢).

وقال الراغب الأصفهاني: «يقال: بان واستبان وتبين وقد بينته، ويقال: آية مبيّنة اعتباراً بمن بينها، وآية مبيّنة وآيات مبيّنة ومبيّنات، والبينة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة... والبيان: الكشف عن الشيء وهو أعم من النطق مختص بالإنسان ويسمى ما بيّن به بياناً، قال بعضهم: البيان يكون على ضربين: أحدهما بالنتجيز وهو الأشياء التي تدلّ على حال من الأحوال من آثار صنعه، والثاني بالاختبار وذلك إما أن يكون نطقاً أو كتابة أو إشارة، فما هو بيان بالحال قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(٣). أي كونه عدوّاً بين في الحال ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ

١- الأعراف (٧٣).

٢- مختار الصحاح ص ٧٢، المصباح المنير ص ٧٠.

٣- الزخرف (٦٢).

يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ . وما هو بين بالاختبار ﴿فَسَلُوا
 أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ
 لُبِّيْنًا لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴿١٢﴾ .

وسمى الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره نحو ﴿هَذَا بَيَانٌ
 لِلنَّاسِ ﴿١٣﴾ . وسمى ما يشرح به الجمل والمبهم من الكلام بياناً (٤) ، نحو
 قوله: ﴿ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانُهُ ﴿٥﴾ .

واليك بعض الأمثلة:

١- قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
 ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ
 لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ
 بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ... ﴿٦﴾ أي جاءكم حجة بينة وهو القرآن
 فإنه حجة بينة على أنه من عند الله، قال ابن عاشور: «والبينة ما به البيان
 وظهور الحق، فالقرآن بينة على أنه من عند الله لإعجازه بلغاء العرب،
 وهو هدى بما اشتمل عليه من الإرشاد إلى طرق الخير» (٧) ، وقال الألوسي:
 «فقد جاءكم بينة حجة جليلة الشأن واضحة تعرفونها لظهورها وكونها
 بلسانكم... «وهدى ورحمة» والمراد بجميع ذلك القرآن، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْبَيِّنَةِ-
 أولاً- إيداناً بكمال تمكنهم من دراسته. وبالهدى والرحمة- ثانياً- تنبيهاً
 على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم

١- إبراهيم (١٠) .

٢- النحل (٤٣ - ٤٤) .

٣- آل عمران (١٣٨) .

٤- المفردات ص ٦٩ .

٥- القيامة (١٥) .

٦- الأنعام (١٥٥-١٥٧) .

٧- التحرير والتنوير (١٣٥/٧) .

بل هو عين الهداية والرحمة. وفي التفسير الكبير: فإن قيل البينة والهدى واحد، فما الفائدة في التكرير؟ قلنا: القرآن بينة فيما يعلم سمعاً، وهو هدى فيما يعلم سمعاً وعقلاً، فلما اختلفت الفائدة صح هذا العطف، ولا يخفى ما فيه^(١) فاعتبار الرازي أن البينة والهدى واحد غير دقيق ولهذا علق عليه بقوله: ولا يخفى ما فيه، وقول الألويسي دقيق في عدم صحة قول الرازي أنهما شيء واحد.

فالبينة تعني الأمر الواضح، قد يكون كلاماً فيسمى بياناً، وهو الكلام الواضح الدال على معناه، والمعجزة البينة دالة على أن صاحبها إنما هو رسول من عند الله تبارك وتعالى، والآيات البينات تدل على أنها من عند الله لا من عند البشر، وهكذا. وهو غير الهدى، فالهداية هي: دلالة بلطف^(٢).

وذلك أن الإنسان قد يعلم الخير لكنه قد لا يستطيع التوصل إليه، مثله مثل الذي يرى شاخصاً من بعيد واضحاً فيريد سبيلاً للتوصل إليه، فالله سبحانه أنزل آيات بينات واضحة الدلالة على أنه من عند الله، ورسم الطريق الموصل إليها، وهذه الآيات فيها الرحمة سواء في فهم الآيات أو في الطريق الموصل إليه. فلكل كلمة دلالة، وليس كما قال الرازي أنهما بمعنى واحد.

٢- قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾^(٣). فالمراد بالبينة: الرسول صلى الله عليه وسلم، أو القرآن فإنه مبين للحق، أو معجزة الرسول بأخلاقه والقرآن بإفحامه من تحدى به^(٤) قال ابن عاشور: «البينة: الحجة الواضحة والعلامة

١- روح المعاني (٦١/٨).

٢- المفردات ص ٥٢٨.

٣- البينة (١).

٤- انوار التنزيل (٥٥٦/٢).

على الصدق، وهو اسم منقول من الوصف جرى على التأنيث لأنه مؤول
بالشهادة أو الآية»^(١).

رابعًا: الحجة

يفيد أصل معنى كلمة الحج إلى القصد والزيارة، وهو في الشرع عبارة عن
قصد بيت الله الحرام لإقامة النسك. قال صاحب مختار الصحاح: «الحج
في الأصل القصد، وفي العرف: قصد مكة للنسك... والحجة البرهان،
وحاجّه فحجّه أي غلبه بالحجة، والتحاجّ: التخاصم»^(٢) وفي المصباح المنير:
«حجّ حجًا: قصد، ثم قصر استعماله في الشرع على قصد الكعبة للحج
أو العمرة... والحجة: الدليل والبرهان، وحاجّه محاَجّة فحجّه محجّة إذا
غلبه في الحجّة»^(٣). وفي القاموس المحيط، عرف الحجّ بأنه القصد والكفّ
والقدوم، والحجة: البرهان، والتحاجّ: التخاصم.^(٤)

فتعريف الحج هو القصد، والحجة في تعريف اللغويين هي البرهان
والدليل، إلا أن القرآن استخدم كلمة الحجة بغير معنى البرهان والدليل.
كما عرفوا التحاجّ بأنه التخاصم، وهو في القرآن بغير معناه الدقيق.

أما الراغب الأصفهاني، فكان أكثر دقة في تعريف الحجة، فقال: «أصل
الحجّ القصد للزيارة، وخص في تعاريف الشرع بقصد بيت الله تعالى
إقامة للنسك، والحجة: الدلالة المبينة للحجة، أي المقصد المستقيم والذي
يقضي صحة أحد النقيضين. والمحاَجّة أن يطلب كل واحد أن يرد الآخر عن
حجته ومحجته»^(٥).

١- التحرير والتنوير (٤١٨/٣٠).

٢- مختار الصحاح ص ١٢٢، باختصار.

٣- المصباح المنير ص ١٢١، باختصار.

٤- القاموس المحيط ص ٢٣٤.

٥- المفردات ص ١٠٧-١٠٨.

وإليك أمثلة لذلك:

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(١). قال ابن عاشور: «هي الأمر الذي يدل على صدق أحد في دعواه وعلى مصادفة المستدل وجه الحق، والبالغة هي الواصلة، أي إلى ما قصدت لأجله وهو غلبُ الخصم وإبطال حجته»^(٢).

- قوله تعالى: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾^(٣)، حيث نفى الحجة بينه وبين من يخالفه، بمعنى أننا أقمنا الحجة عليكم من كل وجه ولم يبق لديكم أي دليل على صدق دعواكم أو عدم قبولكم للحق، قال الألوسي: «لا حجة بيننا وبينكم» أي لا احتاج ولا خصومة، لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة»^(٤).

فالحجة هي: الأدلة والقرائن التي تثبت صحة الدعوى، والأصل أن تكون صوابًا حتى تسمى حجة، ولكن قد يسمى الدليل الموهوم حجة بحسب ظن صاحبه، ولعل ذلك من باب التهكم بمن يدعيه، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٥). فهؤلاء يقاومون الآيات البينات بقولهم: اتبنا بآبائنا، وهذه حجتهم أي هذا أقوى دليل عندهم في بطلان البعث يوم القيامة. وانظر إلى

١- الأنعام (١٤٩).

٢- التحرير والتنوير (١١٣/٧).

٣- الشورى (١٥).

٤- روح المعاني (٢٥/٢٥).

٥- الجاثية (٢٥).

العجب في كلامهم فقالوا: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ... ﴾^(١)، وحثهم في ذلك هي عدم عودة آباءهم للحياة الدنيا، علماً أن تعاليم الرسل أن الإحياء يكون في الآخرة وليس في الدنيا، ثم إنهم أتوا بما يدعون أنه حجة والحجة ينبغي أن تكون صادقة ومقنعة، فأتوا بهذا الكلام المنقوص من كل وجه.

خامساً: المحاجة

أما المحاجة فهي رفع حجة الآخر، وهو ما يقتضي إثبات الدعوى وإنكار دعوى الخصم، وقد استخدمها القرآن الكريم في باب الجدل بالباطل، لذلك نقرأ قول الله تعالى: ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾^(٢) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَابْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا كَمَا وَنَافَسْنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا... ﴾^(٤)، وقوله: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَمِّتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾^(٥).

قال ابن عاشور في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَيْبِهِ ﴾^(٥): «ومعنى «حاج» خصم، وهو فعل جاء على زنة المفاعلة، ولا يعرف لحاج في الاستعمال فعل مجرد دال على وقوع الخصام، ولا تعرف المادة التي اشتق منها. ومن العجيب أن الحجة في كلام العرب: البرهان

١- الجاثية (٢٤).

٢- آل عمران (٦٠-٦١).

٣- الأنعام (٨٠).

٤- آل عمران (٢٠).

٥- آل عمران (١٥٨).

المصدّق للدعوى، مع أنّ «حاجّ» لا يستعمل غالباً إلا في معنى المخاصمة، وأنّ الأغلب أنه يفيد الخصام بباطل»^(١).

إلا أنّ القرآن الكريم استخدم المحاجة بغير معنى الخصام، ولعل ما يفيد الفرق بينهما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ حَكَّم بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٢﴾. وقوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْنِحٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمْ تَكُونُوا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَسِّرْ لَنَا الْقَرَارَ ..﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضَمُ أَهْلُ النَّارِ﴾^(٣) ففي الآية الأولى «يَتَحَاوَرُونَ» حيث فيها معنى بيان الحجة بأنّ المستكبرين هم سبب إدخال الضعفاء النار، أما التخاصم فهو في معنى التأنيب والتعنيف للطرف الآخر.

سادساً: السلطان

قد تستخدم كلمة السلطان بمعنى الحجة، وأصله من السلطان وهو التمكن من القهر، ففي مختار الصحاح: السلاطة: القهر، والسلطان: الحجة والبرهان^(٤). عرّفه في المصباح المنير وفي القاموس المحيط بالحجة^(٥).

وقال الراغب الأصفهاني: «السلاطة: التمكن من القهر، يقال سلّطته فتسلط، ومنه سُمّي السلطان، وقد يقال لذي السلاطة وهو الأكثر، وسُمّي الحجة سلطاناً وذلك لما يلحق من الهجوم على القلوب لكن أكثر تسلطه على أهل العلم والحكمة من المؤمنين»^(٦).

١- التحرير والتنوير (٥٠٥/٢)، بتصرف.

٢- غافر (٤٧-٨٤).

٣- ص (٥٩-٦٤).

٤- مختار الصحاح ص ٢٠٩، بتصرف.

٥- المصباح المنير ص ٢٨٥، القاموس المحيط ص ٧٦٨.

٦- المفردات ص ٢٢٨، بتصرف.

ولعل الأولى في تعريف السلطان هو: أنه يراد به القوة التي تمنع ما يخالفها، فإن أريد بالسلطان هو الوالي فلما يملكه من قوة يخضع لها الجميع، وإذا أريد بذلك الحجة، فيراد بها: الحجة التي لا يكون للطرف الآخر قدرة على مقابلتها، والتي تقطع جميع الحجج.

وبذلك يختلف السلطان عن الحجة والدليل وغيره، فالدليل هو بمعنى القرائن والعلامات التي تم التوصل بها لأمر خفي لا يمكن الوصول إليه إلا بجهد، أما الحجة فهي توضيح الدليل أو الدعوى، وأما السلطان فهو: الإتيان بالحجة القاطعة التي لا تقابلها حجة.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد هذا التعريف.

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَاتَّبَعُوهُ أَمْرًا فِرْعَوْنًا وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾^(١)، فالسلطان هو الدليل القاطع، قال البيضاوي: «وسلطان مبين» وهو المعجزات القاهرة أو العصا، وإفرادها بالذكر لأنها أبهرها، ويجوز أن يراد بهما واحد، أي ولقد أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وسلطاناً له على نبوته واضحاً في نفسه أو موضعاً إيها، فإن «أبان» جاء لازماً ومتعدياً، والفرق بينهما: أن الآية تعم الأمارة والدليل القاطع، والسلطان يخص بالقاطع، والمبين يخص بما فيه جلاء»^(٢)، وقال ابن عاشور: «والسلطان البرهان المبين، أي المظهر صدق الجائي به وهو الحجة العقلية أو التأييد الإلهي»^(٣).

- وقال تعالى حاكياً قصة سليمان: ﴿وَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَىٰ الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَابِئِينَ ﴿٣٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأَذِجَنَّهُ

١- هود (٩٦-٩٧).

٢- أنوار التنزيل (١٤٨/٢).

٣- التحرير والتنوير (٣٢٤/١١).

أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾. وقد عرف كثير من المفسرين السلطان هنا بالحجة^(٢). وقال الألوسي: «بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. أي بحجة تبين عذره في غيبته، وما أظف التعبير بالسلطان دون الحجة هنا لما أن ما أتى به من العذر انجر إلى الإتيان ببليقيس وهي سلطان»^(٣).

فتفسيره السلطان بمجرد الحجة غير دقيق، ثم تعليل الألوسي بالتعبير بلفظ السلطان لأنه انجر للإتيان ببليقيس وهي سلطان تأويل بعيد، ولو تم تفسيره بالحجة القاطعة التي تقطع كل حجة مقابلة أو احتمال آخر لكان هو الأولى، وبذلك يختلف عن الحجة، فإن الحجة هو الإتيان بالأدلة لما يقوله المدعي، أما السلطان فهو الحجة القوية القاطعة، وبذلك يظهر الحكمة من الإتيان بلفظ السلطان، فإن الهدد قد يحتج بأدلة على غيابه، لكن المقصود أن يأتي بحجة قاطعة دامغة، وأكدها بلفظ مبين لبيان أنها قاطعة في الدلالة وواضحة أيضًا.

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ لِيَنْفِرُوا فِي سُدُورِهِمْ إِلَّا كَبُورًا مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾^(٤)، فقد فسر ابن عطية السلطان بالحجة والبرهان^(٥). وقال الألوسي: «بغير سلطان أتاها» أي بغير حجة في ذلك أتتهم من جهته تعالى، وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيان الحجة للإيدان بأن المتكلم في أمر الدين لا بد من استناده إلى حجة واضحة وبرهان مبين، وهذا عام في كل مجادل مبطل»^(٦). وقال ابن عاشور: «أي غير حجة، أي أنهم يجادلون مجادلة عناد وغضب. وفائدة هذا القيد

١- النمل (٢٠-٢١)

٢- المحرر الوجيز ص ١٧٤، أنوار التنزيل (٥٦٤/٢)، التحرير والتنوير (٢٤٤/١٩).

٣- روح المعاني (١٨٤/١٩).

٤- غافر (٥٦).

٥- المحرر الوجيز ص ١٦٤١.

٦- روح المعاني (٧٨/٢٤).

تشنيع مجادلتهم، وإلا فالمجادلة في آيات الله لا تكون إلا بغير سلطان... وكذلك وصف سلطان بجملة أتاهم لزيادة تفضيع مجادلتهم بأنها عرية عن حجة لديهم، فهم يجادلون بما ليس لهم به علم»^(١).

ولعل الأولى هو القول بأنه وصفهم بأوصاف غاية في القبح، فوصفهم بالجدل وهو غير محمود إلا ما كان بحق، ثم هم يجادلون في آيات الله وهي العلامات الظاهرة الواضحة الدالة على صفاته ووعده ووعيده، وهذا الجدل بغير سلطان أي بغير حجة قاطعة، فلماذا قال بغير سلطان ولم يقل بغير حجة أو دليل؟ لأنه قد يتظاهر لأنفسهم وأتباعهم أن لهم شيئاً من الحجة والدليل فقال بغير سلطان أي بغير دليل مقنع لأنفسهم وأتباعهم فضلاً عن أن يكون لحجتهم أي قيمة حقيقية، ثم بين علة جدلهم وهو الكبر الذي في صدورهم.

سابعاً: البرهان

عرف اللغويون البرهان بأنه الحجة، ففي مختار الصحاح أن البرهان هو الحجة، وبرهن عليه أي أقام الحجة، وكذا ورد في المصباح المنير للفيومي^(٢). واعتبر الراغب الأصفهاني أن البرهان هو أوضح الأدلة وأكدها وهو ما لا يقتضي إلا الصدق، فقال: «البرهان بيان الحجة، وهو «فعلان» مثل الرجحان والثنيان... والبرهنة مدة من الزمان، فالبرهان أكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة، وذلك أن الأدلة خمسة أضرب: دلالة تقتضي الصدق أبداً، ودلالة تقتضي الكذب أبداً، ودلالة إلى الصدق أقرب، ودلالة إلى الكذب أقرب، ودلالة هي إليهما سواء»^(٣).

١- التحرير والتنوير (٢٤/٢٢٠).

٢- مختار الصحاح ص ٥٠، المصباح المنير ص ٤٦.

٣- المفردات ص ٤٥.

فالبرهان يمكن تعريفه بأنه الحجة الواضحة التي تعطي اليقين التام، وهو ما تشير إليه آيات القرآن الكريم. وإليك بعض الأمثلة:

- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ فَدَّجَاءُكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾^(١).

قيل: المراد بالبرهان المعجزات أو الدين أو رسول الله صلى الله عليه وأياً كان المراد فإن البرهان هو الحجة الواضحة التي لا لبس فيها ولا غموض، قال ابن عطية: «إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، والبرهان: الحجة النيرة الواضحة التي تعطي اليقين التام، والمعنى: قد جاءكم مقترناً بمحمد صلى الله عليه وسلم برهان من الله تعالى على صحة ما يدعوكم إليه»^(٢).

- قوله تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِن غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَنُوكَ بُرْهَانًا مِّن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ...﴾^(٣).

قال ابن عطية: «برهانان» حجتان ومعجزتان»^(٤)، وقال ابن الجوزي: «برهانان» أي اثنتان، قال المفسرون: «فَذَنُوكَ» يعني العصا واليد حجتان من الله لموسى على صدقه»^(٥)، وقال ابن عاشور: «والبرهان الحجة القاطعة، أي حجتان على أن أرسل بهما إليهم»^(٦).

١- النساء (١٧٤) .

٢- أنوار التنزيل (١٣/١) .

٣- زاد المسير في علم التفسير ص ٢٤٩.

٤- المحرر الوجيز، ص ٥٠٣.

٥- القصص (٣٢) .

٦- المحرر الوجيز ص ١٤٤١.

٧- زاد المسير ص ١٠٦٤.

٨- التحرير والتنوير (٥١/٢٠) .

فقد أيد الله موسى عليه السلام بمعجزات... لكن أوضحها وأهمها العصا واليد، ولذلك قال عنهما «برهانان».

- قوله تعالى في شأن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهٖ﴾^(١). وقد تكلم العلماء كثيراً في الهم بها هل وقع منه أم لا، ليس هنا مجال بحثه، لكن يوسف عليه السلام رأى حجة واضحة قاطعة تصرفه عن الفعل أو الهم، أي رأى دليلاً واضحاً جلياً لا يحتمل التفسير والتأويل بغير ما رآه، وهو ما يصرفه عن الوقوع في المعصية.



المبحث الخامس

الفروق اللغوية بين ألفاظ الخلاف الناتج عن الحوار

أولاً: الاختلاف

تشير هذه الكلمة إلى أن يأخذ كل واحد طريقاً غير الآخر في قوله أو حاله، والاختلاف في القول هو في معنى الجدل ونحوه. وأصل هذه الكلمة تشير إلى الخلف وهو ضد كلمة أمام فاستخدم لمن يأتي بعده ويخلفه فيسمى خليفة وفعله أخلفه واستخلفه. قال في المصباح المنير: «خالفته مخالفة وخلافاً وتخالفت القوم واختلفوا إذا ذهب كل واحد إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر، وهو ضد الاتفاق، والاسم الخُلف - بضم الخاء - والخلاف»^(١). وقال الراغب الأصفهاني: «خلف ضد قدام... والاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين، ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة»^(٢).

والاختلاف قد يستمر في الدنيا لا يقضى به حتى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٣)، لذلك كانت مهمة النبي صلى الله عليه وسلم بيان ما وقع فيه الاختلاف، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(٤)، وقال: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(٥).

لذلك مرجع الاختلاف إلى كتاب الله تبارك وتعالى، ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ

١- المصباح المنير ص ١٧٩.

٢- المفردات ص ١٥٦.

٣- البقرة (١١٣).

٤- النحل (٦٤).

٥- البقرة (٢١٢).

فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴿١﴾، أي هو سبحانه يفصل فيه في الدنيا أو الآخرة، أو ارجعوا فيه إلى الله تعالى بالرجوع لكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: التفرق

التفريق هو الفصل التام بين الأجزاء أو الأفراد والجماعات، ومنه مَفْرَق الرأس وهو الموضع الذي يفرق فيه الشَّعْر، والفَرْق: مكيال معروف قدر ستة عشر رطلاً، سمي به لأنه يفصل الحَبَّ فصلاً كاملاً عن الصبرة أو الكومة، وأما الفرقان وهو لفظ يفيد المبالغة في التفريق فيراد به القرآن ونحوه كالتوراة، سمي به لأنه يتم به التفريق التام بين الحق والباطل، والفرقة هي الجماعة المنفصلة عن الناس. قال في المصباح المنير: «فَرَّقْتَ بَيْنَ الشَّيْءِ فَرَقًا: فَصَلْتَ أْبْعَاضَهُ»^(٢)، وقال الراغب: «الفرق يقارب الفلق، لكن الفلق يقال اعتباراً بالانشقاق والفرق يقال اعتباراً بالانفصال... والفرق: القطعة المنفصلة، ومنه الفرقة للجماعة المتفردة من الناس، والفريق: الجماعة المتفرقة عن آخرين، وفرقت بين الشيئين فصلت بينهما، سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر أو بفصل تدركه البصيرة»^(٣). وعليه، فالتفريق هو الفصل التام، لذلك طلب موسى عليه السلام أن يفصل بينه وأخيه وبين قومه الظالمين ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٤﴾. أي اجعل كلاً منا في فرقة منفصلة عن الأخرى بحيث تباعد بيننا وبينهم وتخلصنا من صحبتهم^(٥).

١- الشورى (١٠) .

٢- المصباح المنير ص ٤٧٠.

٣- المفردات ص ٣٧٨، باختصار.

٤- المائة (٢٤-٢٥) .

٥- مدارك التنزيل (٢١٦/١) .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(١)، يراد بهم اليهود والنصارى، قال
النسفي: «تفرقوا بالعداوة واختلفوا في الديانة، وهم اليهود والنصارى»^(٢).
وقال الألوسي: «تَفَرَّقُوا» وهم اليهود والنصارى.... واختلفوا في التوحيد
والتنزيه وأحوال المعاد، قيل: وهذا معنى تفرقوا وكرره للتأكيد، وقيل:
التفرق بالعداوة والاختلاف بالديانة»^(٣). وقال ابن عاشور: «وأريد بالذين
تفرقوا واختلفوا في أصول الدين من اليهود والنصارى من بعد ما جاءهم
من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق. وقدم الافتراق على الاختلاف
للايدان بأن الاختلاف علة التفريق، وفيه إشارة إلى أن الاختلاف المذموم
هو الذي يؤدي إلى الافتراق، وهو الاختلاف في أصول الديانة الذي
يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضاً أو تقسيقه، دون الاختلاف في الفروع
المبنية على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار والأعصار، وهو المعبر عنه
بالاجتهاد. ونحن إذا تقصينا تاريخ المذاهب الإسلامية لا نجد افتراقاً
نشأ بين المسلمين إلا عن اختلاف في العقائد والأصول دون الاختلاف في
الاجتهاد في فروع الشريعة»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ﴾^(٥). فيراد به
أن يفارق كل منهما الآخر فينفصلان عن بعضهما البعض فلا يتركها مثلاً
كالمعلقة لا هي زوجة ولا هي مطلقة.

١- آل عمران (١٠٥) .

٢- مدارك التنزيل (١٩٥/١) .

٣- روح المعاني (٢٣/٤) .

٤- التحرير والتبوير (١٨٤/٣) .

٥- النساء (١٣٠) .

ثالثاً: الخصام

عرف البعض الخصام بأنه الجدل ، وآخرون عرفوه بأنه النزاع، ففي القاموس المحيط قال: «الخصومة: الجدل... ورجل خصم: مجادل»^(١)، وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: «الخصاء والصاد والميم أصلان: أحدهما المنازعة، والثاني جانب وعاء... فالأول الخصم الذي يخاصم، والأصل الثاني: الخصم جانب العدل الذي فيه العروة... ويمكن أن يجمع بين الأصلين فيرد إلى معنى واحد، وذلك أن جانب العدل مائل إلى أحد الشقين، والخصم المنازع في جانب»^(٢) وقال الراغب الأصفهاني: «الخصم مصدر خصمته أي نازعته خصماً، واستعمل للواحد والجمع وربما ثني، وأصل المخاصمة أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أي جانبه وأن يجذب كل واحد خصم الجوالق^(٣) من جانب»^(٤).

وتعريف الخصام بأنه الجدل قول غير دقيق، لأن معنى الجدل هو إظهار الأدلة بقصد مغالبة الخصم أو إقناعه بالحجة. أما الخصام فالظاهر أنه تعدى أمر الحوار والجدل والمراء إلى جرّ الخصم إلى ما بعد الحوار والجدل وهو الاحتكام للقضاء أو المغالبة وهو ما يتفق مع الأصل اللغوي للكلمة، إذ أصله أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أي جانبه ويجره لما يريد.

وهو غير المنازعة، فلعل كلمة معنى مستقل وسيأتي معناها.

والخصام معناه هو الوقوف في وجه الخصم، والاختصاص هو جرّ الخصم إلى حل الخلاف بين الطرفين. وإليك بعض الأمثلة

١- القاموس المحيط ص ١٤٢٤.

٢- معجم مقاييس اللغة (١٨٧/٢) باختصار.

٣- الجوالق هو الوعاء ، كما في مختار الصحاح ص (١٠٦).

٤- المفردات ص ١٤٩.

١- قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ
اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(١)، فسرهما البيضاوي بالجدل،
فقال: «وهو ألدّ الخصام» شديد العداوة والجدل للمسلمين^(٢). وكذا قال
النسفي^(٣)، وهو تفسير غير دقيق.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمَهِمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ
وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(٤). فذكر ابن عطية أن الاختصام
هو أنهم يتراجعون القول الجهيري في أمرها^(٥). وقال البيضاوي: «وما كنت
لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون».
«تفاضاً في كفالتها»^(٦) وكذا ذكر النسفي^(٧).

إلا أن الآية أشارت إلى أمر، وهو أنهم اختلفوا في كفالتها، فبين كل منهم
حجته فلم يصلوا إلى أمر، فتحولوا إلى القرعة من خلال رمي الأقلام، وهل
الاختصام قبل القرعة أو بعده فكلاهما محتمل، إذ يحتمل أنهم اختصموا
في كفالتها ثم لجأوا للقرعة، ويحتمل أنهم اختصموا بعد القرعة. قال
الألوسي: «وكان هذا الاختصام بعد الاقتراع في رأيي وقبله في آخر»^(٨).

وقد يكون الاختصام في أمر آخر غير كفالتها... والمهم أن استخدام كلمة
الاختصام تشير إلى أن جدلاً كان بينهم في شأن كفالتها لم يتوصلوا فيه إلى
حل فلجأوا للقرعة.

١- البقرة (٢٠٤).

٢- أنوار التنزيل (١/١٨/١).

٣- مدارك التنزيل (١/١١٥).

٤- آل عمران (٤٤).

٥- المحرر الوجيز ص ٢٠٠.

٦- أنوار التنزيل (١/٢٦١).

٧- مدارك التنزيل (١/١٧٦).

٨- روح المعاني (٢/١٥٩).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْرٌ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿١﴾

فقد انتقل في هذه الآية من وصفهم بالجدل إلى وصفهم بالخصام، قال ابن عاشور: «بل هم قوم خصمون» إضراب انتقالي إلى وصفهم بحب الخصام وإظهارهم من الحجج مالا يعتقدونه تمويهاً على عامتهم»^(٢) ولعل الآية تشير إلى شدة عداثهم للنبي صلى الله عليه وسلم حيث جادلوه بالباطل، فلما لم يفلحوا في ذلك وقفوا في وجهه مخاصمين له، فالخصام هو الوقوف في وجه الخصم، وغالباً ما يكون بالباطل.

لذلك نجد في الأحاديث وصف الجدل بأنه ضلال، أما الخصام، فإنه الأَبْغَضُ إِلَى اللَّهِ، قال صلى الله عليه وسلم: «ما ضل قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»^(٣)، وقال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(٤).

والخصام غالباً ما يكون مذموماً، وقد يكون محموداً، فإن كان في مواجهة الباطل فهو محمود وإلا فهو مذموم، والمؤمن مأمور بالطاعة لله ورسوله ولأولي الأمر في غير معصية، وفيما لا يعلمه المرء يسأل فيه أهل العلم.

رابعاً: النزاع

يمكن تعريف النزاع بأنه أخذ الشيء بقوة، قال الفيومي في المصباح المنير: «نزاعته من موضعه نزاعاً قلعته، ونزع السلطان عامله: عزله،

١- الزخرف (٥٨/٥٧).

٢- التحرير والتنوير (٢٧٧/٢٥).

٣- رواه الترمذي (٣٢٥٣) وقال: حسن صحيح.

٤- رواه البخاري (٧١٨٨).

ونازعته في كذا منازعة ونزاعاً: خاصمته، وتنازع القوم: اختلفوا»^(١) وفي مختار الصحاح قال: «نزع الشيء من مكانه قلعه، ونازعه منازعة: جاذبه في الخصومة، والتنازع: التخاصم»^(٢).

ولعل تعريفه بأنه الأخذ بقوة هو الأولى، وهو يختلف عن القلع، فالقلع إزالته من مكانه وقد يكون بلطف.

لذلك تستخدم كلمة النزع لأمر ألفه الإنسان ورغب فيه ثم يؤخذ منه بشيء من الشدة لتمسكه به، وهو ما أشار إليه الراغب الأصفهاني بقوله: نزع الشيء جذبه من مقره كنزع القوس عن كبده، ويستعمل ذلك في الأعراس، ومنه نزع العداوة والمحبة من القلب، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾^(٣)، وانتزعت آية من القرآن في كذا، ونزع فلان كذا أي سلب، قال: ﴿وَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَّشَاءُ﴾^(٤). وقوله ﴿وَالنَّزِعَتِ عَرَفًا﴾^(٥)، قيل: هي الملائكة التي تنزع الأرواح عن الأشباح.... والتنازع والمنازعة المجاذبة، ويعبر بهما عن المخاصمة والمجادلة^(٦). وعليه، فإن النزع هو أخذ الشيء بقوة من مكانه المخصص له أو الذي ألفه بحيث لا يخرج منه بسهولة، وإليك بعض الأمثلة:

١- قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾^(٧). فالغل هو القيد الذي يمنع صاحبه من الحركة، وهو هنا بمعنى البغضاء والحقد الكامن في الصدور، وقد يقع ذلك للمؤمنين في الدنيا لأمر دنيوية، وهو أمر طبيعي

١- المصباح المنير ص ٦٠٠، باختصار.

٢- مختار الصحاح ص ٦٥٤، باختصار.

٣- الأعراف (٤٣).

٤- آل عمران (٢٦).

٥- النازعات (١).

٦- المفردات ص ٤٨٨.

٧- الأعراف (٤٣).

في البشر، لذلك كان من علامة ذلك الرجل الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم أنه من أهل الجنة والذي قال: أبيت وليس في قلبي غلّ على أحد. لذلك يكرم الله المؤمنين بأن ينزع ما بقي في صدورهم من غلّ بسبب أمور الدنيا، وهو من باب زيادة النعيم بحيث لا يبقى منغص للعيش، قال الألوسي: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ» أي قلعنا ما في قلوبهم من حقد مخفي فيها وعداوة كانت بمقتضى الطبيعة لأمر جرت بينهم في الدنيا»^(١).

وبذلك تظهر بلاغة القرآن في استخدام كلمة النزاع للإشارة إلى شيء مخفي لم يزله مر الزمن والظروف فيكرمهم الله باقتلاعه من نفوسهم وإزالته من جذوره.

أما النزاع والتنازع فهو يفيد معنى الاختلاف الذي يجعل كل فرد يتصرف بنفسه دون الرجوع إلى أولي الأمر أو إلى رأي العلماء، وكأنه ينزع حقه بيده.

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۗ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ غِيظَكُم مِّنْ دُونِكُمْ ۚ لِيُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ...﴾^(٢).

فهنا عبّر بفعل التنازع عما حصل للرماة من ترك الجبل في غزوة أحد، وذكرت الآية الفشل ثم التنازع ثم العصيان وهو ما يشير لكل حالة من الحالات المختلفة، فالفشل هو ضعف مع جبن، وليس الضعف هو ضعف القتال لأن الآية تشير إلى ذلك، حيث عبّر بقوله «تحسونهم» أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً، إلا أنهم لما فكروا في أمر الغنائم فشلوا، ثم حصل النزاع وهو الاختلاف غير المنضبط بقواعد، وذلك لأنهم لم يلتزموا بطاعة أمر ولي

١- روح المعاني (٨/١٢٠).

٢- آل عمران (١٥٢).

الأمر، ثم قال: وعصيتم، أي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم. والتنازع ليس هو مجرد الاختلاف إنما هو أكبر من ذلك، فالاختلاف إذا وصل إلى حالة يتصرف كل واحد برأيه يصيح تنازعا.

لذلك نجد البعض قد فسر التنازع بمجرد الاختلاف، وهو غير دقيق، قال النسفي: ﴿وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي اختلفتم^(١). إلا أن المعنى الذي ذكره هو الأولى.

ولذلك، فمعنى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(٢)، ليس مجرد الاختلاف وإن كان الاختلاف مذموماً، لكن التنازع هو الاختلاف الذي لا يخضع فيه المختلفان إلى حل.

خامساً: الشجار

ورد في قواميس اللغة تعريف الشجار بأنه الاختلاف والنزاع، ففي مختار الصحاح قال: شجر بين القوم أي اختلف الأمر بينهم، واشتجر القوم وتشاجروا: تنازعوا، والمشاجرة: المنازعة. وكذا ورد بمعناه في القاموس المحيط^(٣). أما المصباح المنير، فذكر أن معناه الاضطراب، فقال: شجر الأمر بينهم شجراً: اضطرب، واشتجروا: تنازعوا^(٤). أما الراغب الأصفهاني فعرفه بأنه النزاع، فقال: «الشجار والمشاجرة والتشاجر: المنازعة»^(٥).

ولم يرد الشجار في القرآن الكريم إلا في موضع واحد وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا

١- مدارك التنزيل (٢١٠/١).

٢- الأنفال (٤٦).

٣- مختار الصحاح ص ٢٣٠، القاموس المحيط ص ٥٢٠.

٤- المصباح المنير ٣٠٥.

٥- المفردات ص ٢٥٦.

فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا^(١). لذا نجد أن العلماء فسروه بمعنى الاختلاف مع الاختلاط، فقال النسفي: «فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ» «فيما اختلف بينهم واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه»^(٢). وقال ابن عطية: «معناه: أختلط والتف من أمورهم»^(٣). وقال الشوكاني: «فيما شجر بينهم أي اختلف بينهم واختلط»^(٤).

فالشجار يكون إذا اختلفت الأدلة اختلافًا كبيرًا واختلط بعضها ببعض بحيث لا يمكن تمييزها وفض النزاع فيها إلا بالتحكيم والتسليم مع انشراح الصدر لذلك، ولهذا قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يجعلونك حكمًا برفع الأمور المختلفة إليك، «ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت»، أي لا تضيق صدورهم من هذا القضاء أو لا يوجد شك في نفوسهم «ويسلموا تسليمًا» أي يتقادوا لحكمك انقيادًا بالظاهر والباطن^(٥).

سادسًا: الشقاق

أصل معنى الشق هو الفتحة في الشيء يقسمه إلى قسمين، والشق مفرد جمعه شقوق، والشق-بالكسر- نصف الشيء أو الناحية من الجبل أو الشيء، وانشق الشيء إذا انقسم إلى نصفين^(١). قال الراغب: «الشَّقُّ: الخرم الواقع في الشيء، يقال: شققته بنصفين... والشقة: القطعة المنشقة كالنصف، ومنه قيل: طار فلان من الغضب شقاقًا، وطارت منهم شقة

١- النساء (٦٥).

٢- مدارك التنزيل (١/٢٦٣).

٣- المحرر الوجيز ص ٥٤٢.

٤- فتح القدير (١/٥٧٢).

٥- مدارك التنزيل (١/٢٦٣).

٦- مختار الصحاح ص ٢٤٢.

كقولك قطع غضبًا، والشق: المشقة والانكسار الذي يلحق النفس والبدن، وذلك كاستعارة الانكسار لها... والشقة: الناحية التي تلحقك المشقة في الوصول إليها.. والشقاق المخالفة وكونك في شق غير شق صاحبك، أو من شق العصا بينك وبينه، قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾^(١)، ﴿فَأَمَّا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾^(٢). أي مخالفة^(٣).

واليك بعض الأمثلة:

١- قوله تعالى حاكياً قول شعيب عليه السلام: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا يُجْرِمُونَكَ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعْئِدٍ﴾^(٤). قال البيضاوي: «لا يجرمكم» لا يكسبكم «شقاقي معاداتي»^(٥) ومثله ذكر ابن عطية وابن الجوزي.^(٦) وقال الألوسي: «شقاقي أي معاداتي، وأصلها أن أحد المتعادين يكون في عروة وشق، والآخر في آخر.. وعن الحسن: ضارري، وعن بعض: فراقني، والكل متقارب»^(٧).

والأولى تفسيرها بمعنى الخلاف الذي يجعل المرء في شق غير شق الآخر بحيث يقف نظيره، وهو أقل من العدا، فإن العدا يقتضي مقابلته بأشد مما يصدر منه، من العروة وهو المكان المرتفع.

٢- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيَنْ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَفِّقُونَ فِيهِمْ﴾^(٨). قال ابن عطية: «شاقون معناه تحاربون

١- النساء (٣٥).

٢- البقرة (١٣٧).

٣- المفردات ص ٢٦٤.

٤- هود (٨٩).

٥- أنوار التنزيل (١٤٦/٢).

٦- المحرر الوجيز ص ٩٦٧، زاد المسير ص ٦٦٨.

٧- روح المعاني (١٢١/١٢).

٨- النحل (٢٧).

وتحاجون»^(١). وقال ابن الجوزي: «تشافون فيهم» أي تخالفون المسلمين فتعبدونهم وهم يعبدون الله»^(٢)، وقال البيضاوي: «تعادون المؤمنين في شأنهم»^(٣). وقال الألوسي: «أي تخاصمون وتتازعون الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم في شأنهم وتزعمون أنهم شركاء حقًا حين بينوا لكم ذلك، وفسر بعضهم المشاققة بالمعاداة... وقيل للمخاصمة مشاققة أخذًا من شق العصا أو لكون كل من المتخاصمين في شق»^(٤).

فالبعض فسر المشاققة بالمحاربة والمحاجة، وآخرون بالمخالفة، وآخرون بالعداوة، وآخرون بالمخاصمة والمنازعة، ولعل الأولى هو تفسيرها بالخلاف الموصل إلى الفرق بين المتخالفين، فاستخدم عبارة تشاقون فيهم كمن يقول لآخر: لا ألتقي معك حتى تؤمن بما أؤمن به من اعتقاد الشركاء، وهو معنى المشاققة، أو: أنت في شق وأنا في شق حتى تؤمن بما أؤمن به.

وبذلك يظهر المعنى الدقيق للمشاققة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥) فيراد به الانفصال التام عن مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع سبيل غير سبيل المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾^(٦)، أي إذا خفتم أن يبلغ الخلاف مبلغًا يجعل كل واحد منهما في واد أو في شق آخر فعندها ابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، وفيه إشارة إلى عدم التدخل في شؤون الأسرة بمجرد خلاف يمكن أن يحل بين الزوجين.

١- المحرر الوجيز ص ١٠٩١.

٢- زاد المسير ص ٧٧٥.

٣- أنوار التنزيل (٢/٢٥٨).

٤- روح المعاني (١٤/١٢٧).

٥- النساء (١١٥).

٦- النساء (٣٥).

سابعاً: المحادّة

كلمة المحادّة مأخوذة من الحد، وهو الحاجز بين الشيئين الذي يمنع من اختلاط أحدهما بالآخر. قال الراغب: «الحدّ الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، يقال: حددت كذا، جعلت له حدّاً يميّز، وحدّ الدار ما تميز به عن غيرها، وحدّ الشيء: الوصف المحيط بمعناه المميز له عن غيره، وحدّ الزنا والخمر سمي به لكونه مانعاً لمتعاطيه عن معاودة مثله ومانعاً لغيره أن يسلك مسلكه... وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(١). أي يمانعون، فذلك إما اعتباراً بالمانعة، وإما باستعمال الحديد»^(٢).

وقد استخدم القرآن الكريم في مواطن يحادّون الله ورسوله وفي مواطن أخرى يشاقون الله ورسوله، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبُورًا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(٣)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾^(٤). كما بين سبحانه عدم وجود مؤمن يحمل المودة للذين يحادون الله ورسوله ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٥)، لأنه قد توعد المحادين بالنار أن يكونوا خالدين ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَتَتْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾^(٦).

وقد أورد المفسرون لمعنى المحادّة عدة أقوال، قال البيضاوي في معنى يحادد: يشاقق^(٧)، وقال ابن عطية: «المحادّة: أن يعطي الإنسان صاحبه

١- المجادلة (٥) .

٢- المفردات ص ١٠٩ .

٣- المجادلة (٥) .

٤- المجادلة (٢٠) .

٥- المجادلة (٢٢) .

٦- التوبة (٦٢) .

٧- أنوار التنزيل (٦٢/٢) .

حدّ قوله أو سلاحه وسائر أفعاله، وقال قوم: هي أن يكون الإنسان في حدّ وصاحبه في حدّ مخالف^(١) وقال ابن الجوزي: «فيه قولان: أحدهما من يخالف الله. والثاني: من يعادي الله، كقولهم: من يجانب الله ورسوله، أي يكون في حدّ، والله ورسوله في حدّ^(٢)» وقال الألويسي: «من يحادد الله ورسوله» أي من يخالف أمر الله وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام، وأصل المحادّة مفاعلة من الحدّ بمعنى الجهة والجانب، كالمشاقّة من الشقّ والمعاداة من العداوة بمعناه أيضًا، فإن كل واحد من مباشري كل من الأفعال المذكورة في حدّ وشقّ وعداوة غير ما عليه صاحبه، ويحتمل أن تكون من الحد بمعنى المنع^(٣)، وقال ابن عاشور: «المحادّة: المعاداة والمخالفة»^(٤).

وتفسير العلماء للمحادّة بأنها المشاقّة أو المخالفة أو المعاداة إنما هي معانٍ تقريبية، لكن القرآن الكريم استخدم هذه الكلمات كل في مكانه لحكمة معينة وإن كان المعنى متقاربًا.

فكلمة المشاقّة تعطي معنى البعد بين طرفين لأن كل واحد منهما يكون في شقّ غير شقّ الآخر، أما المحادّة فتعطي معنى القرب بين الطرفين حيث يفصل بينهما حدّ، والمتأمل للآيات القرآنية يجد أن المشاقّة استخدمت مع الكافرين والمحادّة استخدمت مع المنافقين، فالكافرون بعيدون في مجتمعاتهم وصفاتهم عن المؤمنين، أما المنافقون فيعيشون مع المسلمين في مجتمعاتهم ويتظاهرون ببعض الصفات وإن كانت لهم علامات تميزهم عن المؤمنين الصادقين، فكلمة المحادّة وردت في سورة التوبة ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُّحَادِدُونَ لِأَللّٰهِ وَرَسُولِهِ...﴾^(٥) في سياق الحديث

١- المحرر الوجيز ص ١٨٣٣.

٢- زاد المسير ص ٥٩٢.

٣- روح المعاني (١٢٩/١٠).

٤- التحرير والتنوير (١٣٨/١٠).

٥- التوبة (٦٣).

عن المناقنين، كما وردت في سورة المجادلة في الحديث عن الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم أو الذين يوادون من حاد الله ورسوله ونحوهم. أما الذين شاقوا الله ورسوله فوردت في سياق الحديث عن الكافرين كالذي في سورة الأنفال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾^(١) ومثلها في سورة الحشر^(٢). وغيرها.

أما المعادة فهي أمر أشد فتكون من طرف ملتزم بما ينبغي الالتزام به والثاني يعتدي عليه بالقول أو بالفعل، كأن يظهر الأول المحبة والمودة بينما يقابله الآخر بالفطلة والشدة. وكذلك المخالفة والاختلاف فقد يختلفان في الرأي لكنه أمر طبيعي في البشر، وإذا ورد النهي عنه في مواطن فهو الاختلاف المؤدي للتفرق أو الاختلاف في أصول الدين، لذلك فالاختلاف في فروع الشريعة رحمة.

ثامناً: العداوة

العداوة معناها تجاوز الحد، قال الراغب: «العدو التجاوز ومنافاة الالتئام، فتارة يعتبر بالقلب فيقال له العداوة والمعادة، وتارة بالمشي فيقال له العدو، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له العدوان والعدو، وتارة بأجزاء المقر فيقال له العدواء.. والعدو ضربان أحدهما بقصد من المعادي، والثاني لا بقصده بل تعرض له حالة يتأذى بها كما يتأذى مما يكون من العدا.. والاعتداء مجاوزة الحق»^(٣).

١- قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٤). أي لا تعتدوا في ابتداء القتال، أو لا تعتدوا

١- الأنفال (١٣) .

٢- الحشر (٤) .

٣- المفردات ص ٣٢٦.

٤- البقرة (١٩٠) .

بقتال من نهيتهم عنه من النساء والشيوخ ونحوهما، أو لا تعتدوا بالمثلثة^(١). وذكر ابن الجوزي أن المراد بالاعتداء أربعة أقوال: الأول أنه قتل النساء والولدان، والثاني: لا تقتاتلوا من لم يقاتلكم، والثالث: انه إتيان ما نهوا عنه، والرابع: أنه ابتداؤهم بالقتال في الحرم في الشهر الحرام^(٢).

والمهم أن المراد به مجاوزة الحق إلى الظلم أو الباطل.

٢- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾^(٣)، أي من قاتلكم في الحرم فقاتلوه. وإنما سميّ المقابلة على الاعتداء اعتداء لأن صورة الفعلين واحدة، وإن كان أحدهما طاعة والآخر معصية، قال الزجاج: والعرب تقول: ظلمني فلان فظلمته، أي جازيته بظلمه^(٤).

١- مدارك التنزيل (١٠٨/١) .

٢- زاد المسير ص ١١١ .

٣- البقرة (١٩٤) .

٤- زاد المسير ص ١١٢ .



الفصل الثالث
أسلوب التكرار

المبحث الأول

أسلوب التكرار عند اللغويين وفي القرآن الكريم

تحدث العلماء عن قضية التكرار في القرآن الكريم، وخاصة القصص القرآني. وبعضهم يثبت وجود التكرار ويبين فوائده، بينما نجد عبارات آخرين تؤكد نفي التكرار في القرآن الكريم.

والحقيقة أن كل فريق يقصد شيئاً معيناً. فالذي أثبتته نظر إلى تكرار العبارات والموضوعات بشكل عام. والذي نفاه نظر إلى حقيقة الألفاظ والسياق، ليجد أن العبارة إذا تكررت فلا يراد بها نفس المعنى الأول. وإنما لكل عبارة معنى جديد بحسب الألفاظ أو السياق.

ومن بلاغة التعبير أن التكرار إذا كان لغير فائدة، فهو أمر معيب في المتكلم، أما إن كان لفائدة معينة فهو من تمام بلاغة التعبير.

والقرآن الكريم قد يكرر ذكر حرف أو مفردة أو عبارة تكراراً يجدد فيه المعنى فيخرجه عن التكرار المعيب الذي لا فائدة منه. إلا أنه في كل تكرار يأتي بمعنى جديد فيجمع بين التكرار البليغ والمعنى الجديد.

ولو دققنا النظر في الحقيقة قلنا: إنه لا تكرار بحيث يكرر المعنى السابق بحقيقته وحرفيته، إنما يكون له معنى جديد تجده الألفاظ أو السياق. فلو نظرنا للآية التي كثر ذكرها في سورة الرحمن ﴿فِي أَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فرغم أن القارئ أو السامع لا يملّ من تكرار هذه العبارة، بل يطرب لسماعها. إلا أننا نجد أنها في كل مرة تحمل معنى جديداً متناسباً مع ما سبقها من إيراد للنعم المتعددة.

معنى التكرار:

يشير معنى الكرّ إلى العود على الشيء، ولا يكون إلا بالعودة إليه أكثر من مرة، فإن عاد مرة واحدة فهو كرّة، وإن عاد مرتين فهو كرتين. قال الفيومي: «كرّ الفارس كرّاً - من باب قتل - إذا فرّ للجولان ثم عاد للقتال، والجواد يصلح للكرّ والفرّ، وأفناه كرّ الليل والنهار أي عودهما مرة بعد أخرى، ومنه اشتق تكرير الشيء، وهو إعادته مراراً، والاسم: التكرار»^(١)، وقال الراغب: «الكرّ: العطف على الشيء بالذات أو بالفعل»^(٢).

وحقيقته هو: إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسي الأول لطول العهد به^(٣).

فوائد التكرار:

من أهم فوائد التكرار تقرير المعنى في النفوس، قيل: الكلام إذا تكرر تقرر. ويحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها. ثم إن بالتكرار يقع التأثير، فمن لا يتأثر بمرة يمكن أن يتأثر بمرة أخرى أو بالتكرار لمرات متعددة. وإليك أهم فوائد التكرار^(٤):

الأول: التأكيد، والتكرير أبلغ من التأكيد، لأنه وقع في تكرار التأسيس، وهو أبلغ من التأكيد، فإن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوز. فلهذا قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(٥) ثُمَّ كَلَّا

١- المصباح المنير ص ٥٢٠.

٢- المفردات ص ٤٢٨.

٣- البرهان في علوم القرآن للزركشي (١٠/٢).

٤- البرهان (١١/٢) باختصار.

سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿^(١)﴾، إن الثانية تأسيس لا تأكيد، لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء، فقال: وفي «ثم» تشبيه على أن الإنذار أبلغ من الأول.

الثاني: زيادة التشبيه على ما ينفي التهمة، ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَرَ أَنْ يَقُومَ أَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ ﴿^(٢)﴾ فإنه كرر فيه النداء لذلك.

الثالث: إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانيًا تطرية له وتجديدًا لعهد، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمَلُوا الشُّرَّءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾.

الرابع: في مقام التعظيم والتهويل، كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿^(٤)﴾، وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٥﴾.

الخامس: في مقام الوعيد والتهديد، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿^(٦)﴾ وذكر «ثم» في المكرر دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول، وفيه تشبيه على تكرر ذلك مرة بعد أخرى، وإن تعاقبت عليه الأزمنة لا يتطرق إليه تغيير، بل هو مستمر دائمًا.

السادس: التعجب، كقوله تعالى: ﴿فَقُلْ كَيْفَ قَدَرْتُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُلْ كَيْفَ قَدَرْتُ ﴿^(٧)﴾ فأعيد تعجبًا من تقديره وإصابته الغرض.

١- التكاثر (٣-٤).

٢- غافر (٢٨-٣٩).

٣- النحل (١١٩).

٤- الحاقة (٢-١).

٥- الواقعة (٢٧).

٦- التكاثر (٦-٧).

٧- المدثر (١٩-٢٠).

السابع: لتعدد المتعلق، كما في قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١) فإنها وإن تعددت فكل واحد منها متعلق بما قبله، وإن الله تعالى خاطب بها الثقلين من الإنس والجن وعدد عليهم نعمه التي خلقها لهم، فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم طلب إقرارهم واقتضاهم الشكر عليه، وهي أنواع مختلفة وصور شتى.

أشكال التكرار^(٢):

للتكرار أشكال كثيرة أهمها:

١- تكرار الحروف:

أ- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْقَمْنَا مِنْهُمُ فَأَعْرَفْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣) فقد تكرر ذكر الفاء، فالفاء تشير إلى الحدث من خلال حدث سابق تسبب في الثاني، ولا يسد عن الفاء في هذه الوظيفة الدلالية غيرها.

ب- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾^(٤).

فقد ورد لفظ كلمة أراد بين لفظي «أن» وقد جاء ذلك بعد لما الظرفية فأعطى ذلك بعداً في التلاوة متناسباً مع تراخي موسى في الفعل الذي هو البطش. ثم إن المصدر لا يعطي بالدقة معنى أن والفعل، كما أن تكرر «أن» خمس مرات ساهم في صيغة التعبير عن المراد بحيث لا تصلح صيغة غيرها.

١- الرحمن (١٣) .

٢- انظر: النسق القرآني ص ٤٥٨ وما بعدها وقد ذكر أنواعها وأمثلة كثيرة.

٣- الزخرف (٥٥) .

٤- القصص (١٩) .

٢- التكرار في الكلمة المردة.

قد يتم تكرار كلمة مفردة أكثر من أخرى وذلك لدلالة معينة، كما يتضح في الأمثلة الآتية:

أ- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ. فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾﴾^(١) فقد تكرر لفظ فرعون ثلاث مرات في آية واحدة، وذلك لدفع توهم عود الضمير إلى غيره. فلو قال: فاتبعوا أمره وما أمره برشيد لأوهم معنى فيه احتمال عود الضمير على غير فرعون. ثم إن تكرار لفظ فرعون فيه من التحقير والتبكي.

ب- قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾﴾^(٢) فقد تكرر لفظ الحاققة للتحويل والتخويف وإثارة المشاعر للبحث عن ماهيتها وما يتعلق بها وأثر الإيمان بها.

ج- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾^(٣) فتكرر لفظ القدر للتعجب والإغراء والتشويق، وإثارة للمشاعر لحثها على اغتنام تلك الليلة والتعرف على فضلها ومكانتها.

٣- التكرار في التركيب:

قد يرد تكرار لاستخدام معين في تراكيب مختلفة، مثل:

أ- قوله تعالى: يحكي قول العبد الصالح: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيَبَهَا وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ

١- هود (٩٦-٩٧).

٢- الحاققة (٣-١).

٣- القدر (٣-١).

يُبْدِلُهُمَا رُبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ مَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿١﴾.

فقد استخدم فعل الإرادة «أردت، فأردنا، فأراد ربك» وقبلها نسب فعل الإرادة للجدار ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾^(٢) فمرة نسبه للجدار، ومرة للعبد الصالح، وأخرى له ولله، وأخرى نسبة لله. وهذا التلوين ينبئ عن دقة التعبير واختيار الصيغة وتوظيفها في النسق بحيث لا يحل محلها غيرها.

ب- قوله تعالى يحكي قول فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

فكرر كلمة الفعل «فعلت، فعلتك، فعلت» للتحويل، وكأن الفعل من فضاغته لا ينبغي النطق به إلا تعريضاً أو كناية، وتلك الفعلية هي قتل القبطي.

ج- قوله تعالى: ﴿فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(٤).

هذه الآية تكررت في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة، وهي في كل مرة تأخذ دلالات مختلفة، وقد وردت بعد تعداد النعم وتعداد النقم، وهي حين تشير إلى النعم تعني الإثارة للاعتراف بها وشكرها، وحين تشير إلى النقم وصور العذاب تعني الإثارة للمبادرة لتفادي ما سيقع منها والاعتراف بخطورها والتوجه بالشكر لصاحب الهداية الذي كشف عن الأبصار والبصائر فعرف بحقيقتها.

١- الكهف (٧٩-٨٢) .

٢- الكهف (٧٧) .

٣- الشعراء (١٩) .

٤- الرحمن (١٢) .

وكلما انتهى السياق إليها كشفت هذه الآية عن نعمة جديدة تستحق،
مع ما سبق من أمثالها، الاعتراف والشكر والتصديق.

ومعنى ذلك أن كل مقطع من المقاطع عُقِبَ بذكره ﴿فِي آيَةٍ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ
تُكَذِّبَانِ﴾ يستوجب وحده الاعتراف بوجوب شكر النعم أو التحذير من
وقوع تلك النقم. أو أن كل نعمة تستوجب شكرًا خاصًا.

ومثله قوله تعالى في سورة المرسلات ﴿وَلِيُّ يَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾^(١) فهي
للتهويل والتخويف فيما ذكر، وأن كل مقطع تذكر عقبه تشير إلى استحقاقه
لوحده ذلك الويل، فكيف إذا اجتمعت جميعها؟.

٤- التكرار في القصص القرآني:

تحدث العلماء عن قضية التكرار في القرآن الكريم، وخاصة القصص
القرآني، والبعض يثبت وجود التكرار ويبين فوائده، بينما نجد عبارات
آخرين تؤكد نفي التكرار في قصص القرآن الكريم. وفي الحقيقة أن كل
فريق يقصد شيئًا معينًا، فالذي يثبته ينظر لحلقات القصة حيث ورد
ذكرها في القرآن الكريم في أكثر من موطن، والذي ينفيه ينظر بالتفصيل
لل كلمات التي سردت فيها القصة وينظر لسوابق تلك الحلقة أو للواحقها
فيجد أن كل حلقة وإن أعيد موضوعها إلا أن القرآن الكريم قد استشهد بها
استشهادًا آخر وساقها لموضوع آخر واستخلص منها عبرة غير التي سبق
ذكرها في السورة الأخرى.

ففي سورة الأعراف وهود والشعراء، نجد قصصًا مكررة تحكي تاريخ
نوح وهود وصالح وشعيب مع أقوامهم، وحتى الحلقة الواحدة من القصة
نجدها تتكرر مرات عدة، فالحلقة من قصة نوح التي تشير لإغراق قومه

١- المرسلات (١٥) .

وإنجاء نوح ومن معه يرد ذكرها في مواطن متعددة من القرآن الكريم، وكذا تكذيب قوم نوح له... فتكرار القصص أو بعض الحلقات من القصة هذا أمر واضح جلي، وهذا هو المقصود بالتكرار لمن أثبت التكرار، أما من نفاه واستخدم عبارة لا تكرر في القرآن أو في القصص القرآني فإنه نظر لما يسبق القصة أو الحلقة من القصة أو لما يلحقها، فوجد أنه لا تكرر، حيث إن القرآن الكريم يعيد تلك القصة أو تلك الحلقة فيستخدمها استخدامًا جديدًا ويستخلص منها عبرة أخرى ودرسًا جديدًا، وذلك إما باستخدام ألفاظ جديدة، أو بتلك الألفاظ التي سردت فيها تلك القصة أو تلك الحلقة منها.

ولذلك فإن قيل: لا تكرر في القرآن الكريم أو في القصة القرآنية، فيقصدون لا تكرر في الحقيقة. وفي هذا سر من أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، فإن من صور إعجاز القرآن البياني أنه يكرر الحلقة من القصة ذاتها ويستخدمها استخدامًا جديدًا، يقول الإمام البقاعي: «إن مناسبات السورة توقفنا على معان عظيمة تدل على إعجاز القرآن الكريم وتكشف عن غامض معناه، وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات في القرآن، فإن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى ادعى في تلك السورة استدل عليه بتلك القصة، غير المعنى الذي سبقت له في السورة الثانية، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض، وتغيرت النظم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل»⁽¹⁾، ويقول سيد قطب: «يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة والحلقة التي تعرض منها والصورة التي تأتي عليها والطريقة التي تؤدي بها، تسيقًا للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي وتحقق غايتها النفسية وتلقي إيقاعها المطلوب.

١- البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.

ويحسب أناس أن هنالك تكرارًا في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق وطريقة الأداء في السياق. وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤدبه ينفي حقيقة التكرار»^(١).

فإذا كان لا تكرار في القرآن الكريم على الحقيقة، فقد استحسن البعض عبارة التنوع بدلاً من التكرار، يقول الأستاذ محمد قطب: «إن التنوع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن... وأنه لمن إعجاز هذا الكتاب أن يعرض الموضوعات التي يكرر ذكرها للتذكير والتربية والتوجيه بهذا القدر المعجز من التنوع بحيث لا تتكرر صورتان متماثلتان أبدًا في القرآن كله، على كثرة المواضع التي يرد فيها كل موضوع»^(٢).

لذا، نجد بعضهم قد عرف التكرار بمعناه الحقيقي بأنه: التنوع في تصوير الأحداث، بإعادة اللفظ أو مرادفه، لتوكيد الشيء أو لإضافة جديد في المعنى أو الصورة»^(٣).

١- في ظلال القرآن (٥٥/١) .

٢- محمد قطب، دراسات قرآنية، ص ٢٦١.

٣- العدوي، معالم القصة في القرآن الكريم ص ١٢٢.

المبحث الثاني

قصة نوح عليه السلام بين العهد المكي والمدني

عرضت قصة نوح عليه السلام في مواطن متعددة من القرآن الكريم، والسور التي عرضت فيها القصة أو بعض حلقاتها إنما هي سور مكية، مع بعض الإشارات في السور المدنية.

وهذه السور هي: الأعراف، يونس، هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، العنكبوت، الصافات، القمر، نوح... كما وردت الإشارة إلى نوح أو قومه في السور التالية: آل عمران، التوبة، إبراهيم، الإسراء، مريم، الحج، الفرقان، ص، غافر، ق، الذاريات، النجم، الحديد، التحريم.

وهذه الإشارات ليس فيها شيء من التفصيل للقصة أو حلقاتها، إنما تم التذكير بما حصل لأولئك القوم لما كذبوا الرسل، وكان ذلك بسبب كونهم ظالمين وفاسقين.

لذا، سنتعرض لمراحل إيراد قصة نوح حسب ترتيب السور في النزول: ^(١)

أولاً: العهد المكي

- سورة النجم: وردت الإشارة فيها إلى أن قوم نوح كانوا أظلم وأطغى ^(٢).

- سورة ق: وردت الإشارة إلى أنه قد كذب قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس واثمود ^(٣).

١- تم أخذ ترتيب السور حسب نزولها من كتاب الإتيان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، باب المكي والمدني ج ١ ص ١٢، ومن تفسير التحرير والتشوير لابن عاشور، ومن التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة. والذي رتب السور فيه على حسب النزول.

٢- النجم (٥٢).

٣- ق (١٢).

- **سورة القمر:** وقد تم فيها الحديث في سبع آيات قصيرة تفيد أن قوم نوح كذبوه فدعا ربه، ففجر الله الأرض عيوناً وأغرق القوم ونجاه الله من ذلك الغرق، وعلق عليها بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾^(١) وسورة القمر كان نزولها في حدود سنة خمس للهجرة. وكذلك الأمر في سورتي النجم وق^(٢).

- **سورة ص:** وفيها إشارة إلى أن قوم نوح كذبوه^(٣).

- **سورة الأعراف:** وقد تحدثت عن قصة نوح باختصار في ست آيات، وخالصة القصة أن نوحاً عليه السلام دعاهم لعبادة الله، فكذبوه واتهموه بالضلal فأنجاه الله وأغرق الذين كذبوه^(٤).

- **سورة الفرقان:** أشارت في آية واحدة إلى أن قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقهم الله وجعلهم آية وأعدت للظالمين عذاباً أليماً^(٥).

- **سورة مريم:** وفيها إشارة إلى إنعام الله على من حُمل مع نوح^(٦).

- **سورة الشعراء:** عرضت سورة الشعراء قصة نوح بإيجاز في ست عشرة آية قصيرة، وقد تضمن ذلك دعوة نوح قومه لتقوى الله وطاعة نوح فيما يدعوهم إليه، لكنهم رفضوا ذلك بحجة أنه قد اتبعه الأردلون من قومهم.. ثم هددوه بالرجم إن لم ينته عن دعوته، فدعا الله أن ينصره عليهم، فأنجاه الله وأغرق قومه^(٧).

١- القمر (١٦) .

٢- انظر تفسير التحرير والتنوير (١٦١/٢٧) .

٣- ص (١٢) .

٤- الأعراف (٥٩-٦٤) .

٥- الفرقان (٣٧) .

٦- مريم (٥٨) .

٧- الشعراء (١٠٥-١٢١) .

- **سورة الإسراء:** تمت الإشارة إلى إنجاء من حمل مع نوح مذكرًا ذريتهم بتلك النعمة، وكأنه قال لبني إسرائيل: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا مع نوح^(١)... وهذه الإشارة وردت في آية واحدة^(٢).

- **سورة يونس:** عرضت حلقات من قصة نوح عليه السلام في ثلاث آيات طويلة، وفيها أن نوحًا عليه السلام قال لهم: إن كان كبر عليكم إقامتي فيكم وتذكيري إياكم فإني توكلت على الله وعزمت أمري على الاستمرار في ذلك، فإن أعرضتم فإني لا أسألكم عليه أجرًا، فكذبوه، فأغرقهم الله ونجاه^(٣).

- **سورة هود:** وقد عرضت فيها تفصيلات لحلقات من قصة نوح لم تعرض في السور الأخرى، وقد عرضت في خمس وعشرين آية فيها شيء من الطول، فأخذت مساحة أكثر من أي سورة، حيث بلغت عدد الأسطر التي تحدثت عن قصة نوح ثلاثة وأربعين سطرًا، بينما حوت سورة نوح أربعة وعشرين سطرًا... وقد عرضت السورة دعوة نوح لقومه ألا يعبدوا إلا الله، فرد قومه بأنه بشر واتبعه الأراذل، فيرد عليهم أنه لا يسألهم أجرًا وليس بطارد المؤمنين... ومن ثم يوحى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فيصنع السفينة ويتم إغراقهم... أما ابنه فيكون مع الكافرين ويغرق معهم^(٤).

- **سورة الصافات:** وتذكر فيها قصة نوح بإيجاز شديد في ثمان آيات قصيرة، وخلاصتها أن نوحًا نادى ربه فنجاه الله وأهله من الكرب العظيم، وعلقت السورة بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَجِّزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٥).

١- تفسير النسفي .

٢- الإسراء (٢) .

٣- يونس (٧١-٧٣) .

٤- هود (٢٥-٤٩) .

٥- الصافات (٧٥-٨٢) .

- **سورة غافر:** وتم فيها الإشارة إلى تكذيب قوم نوح له^(١).

- **سورة نوح:** في هذه السورة تم استعراض قصة نوح بحوالي ثمان وعشرين آية، وقد تم التركيز فيها على إنذار نوح لقومه لأن يعبدوا الله ويتقوه ويطيعوا أمر نوح فيما يدعوهم إليه، كما تم التركيز فيها على بيان الأساليب التي اتبعها نوح في الدعوة حيث لم يترك أي وسيلة فقد دعاهم بالليل والنهار وفي العلن والسر: وخاطبهم بالأسلوب العقلي والعاطفي، وبين لهم أثر استجابتهم وبذل كل ما يستطيع، فلم يؤمن من قومه إلا القليل، فدعا عليهم بأن لا يبقى منهم أي أثر^(٢).

- **سورة الذاريات:** وقد أشارت إلى أن قوم نوح كانوا فاسقين^(٣).

- **سورة إبراهيم:** وقد تم فيها الإشارة والتذكير بقوم نوح وعاد وتماد الذين كفروا برسالات أنبيائهم، وقد صبر أولئك الأنبياء على إيذاء قومهم وتوكلوا على الله^(٤).

- **سورة الأنبياء:** وقد تعرضت لقصة نوح في آيتين، والتي تتلخص في أن نوحًا نادى ربه فاستجاب له ونجاه من الكرب ونصره على قومه الذين كذبوه^(٥).

- **سورة المؤمنون:** وفيها اختصار لقصة نوح، حيث عرضت القصة في ثمان آيات، وخلاصة القصة أن نوحًا عليه السلام دعاهم لعبادة الله، فاتهموه بأنه بشر وأن به جنونًا، فدعا ربه فأوحى إليه بصنع السفينة، وطلب

١- غافر (٥) .

٢- نوح (٨٢-١) .

٣- إبراهيم (٩) ، الذاريات (٤٦) .

٤- إبراهيم (٩) .

٥- الأنبياء (٧٦-٧٧) .

منه أن لا يخاطبه في الذين ظلموا وأن يحمد الله على نجاته من القوم الظالمين.^(١)

- **سورة العنكبوت:** وفيها بيان مدة ما لبث فيهم يدعوهم، فأخذهم الطوفان وأنجاه الله وأصحاب السفينة^(٢).

ثانياً: العهد المدني.

أما في السور المدنية، فقد تمت الإشارة فيها للقصة دون تفصل فيها ولا في أي حلقة من حلقاتها، وكان ذلك على النحو التالي:

- **سورة آل عمران:** حيث أشارت في آية واحدة لاصطفاء نوح وآدم وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين^(٣).

- **سورة الحديد:** وفيها إشارة في آية واحدة إلى أن الله سبحانه جعل النبوة والكتاب في ذرية نوح وإبراهيم^(٤).

- **سورة الحج:** أشارت في آية واحدة إلى تكذيب قوم نوح وعاد وثمود^(٥).

- **سورة التحريم:** وفيها تم التعرض لامرأة نوح وامرأة لوط، كانتا زوجتين لنبيين فخانتاهما حيث كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر الناس إن جاءه ضيوف، فحكم عليهما بالنار^(٦).

- **سورة التوبة:** وقد أشارت إلى أن عددًا من الأقوام منهم قوم نوح جاءتهم رسلهم بالبينات فظلموا أنفسهم بعدم الإيمان بهم^(٧).

١- المؤمنون (٢٣-٣٠) .

٢- العنكبوت (١٤-١٥) .

٣- آل عمران (٣٣) .

٤- الحديد (٢٦) .

٥- الحج (٤٢) .

٦- التحريم (١٠) .

٧- التوبة (٧٠) .

وبعد هذا الاستعراض للسور التي تعرضت لقصة نوح عليه السلام وبيان ترتيبها حسب النزول، نجد أن القصة قد تم التفصيل فيها في العهد المكي، وأن أول سورة أشارت إلى قوم نوح هي سورة النجم والتي كانت قد نزلت في السنة الخامسة للبعثة أو قبلها، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها في الحرم جاهراً بها فسجد وسجد معه المشركون وكان ذلك سنة خمس للبعثة^(١).

وأول سورة عرضت فيها القصة بإيجاز هي سورة القمر، وقد نزلت في السنة الخامسة للبعثة أيضاً^(٢) ثم توالى نزول السور التي تحدثت عن القصة. وقد فصلت سورة هود في قصة نوح أكثر من أي سورة، وورد فيها حلقات لم ترد في السور الأخرى، وسورة هود نزلت قبل سورة فصلت التي قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على عتبة بن ربيعة حينما طلب منه الكف عن الدعوة وكانت الحادثة في أوائل السنة السابعة تقريباً^(٣)، بمعنى أن سورة هود نزلت أواخر السنة السادسة أو أول السابعة للبعثة.

أما العهد المدني فلم نجد فيه إلا إشارات، مرة لاصطفاء نوح على العالمين، ومرة لجعل النبوة والكتاب في ذرية نوح وأخرى لتكذيب قوم نوح، ثم عن امرأة نوح، وبعدها ظلم أقوام لنفسهم بعدم اتباعهم أنبياءهم، وكلها إشارات.

وهذا التفصيل في العهد المكي يشير إلى تناسب نزول القصة مع الواقع الذي نزلت فيه، لأن قصة قوم نوح شبيهة بمشركي قريش، فكان في استعراضها تحذيراً للمشركين وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه. وهو ما يشير إلى أن القرآن الكريم يأخذ من القصة ما يتناسب مع موضوع السورة ومع الواقع الذي نزلت فيه.

١- الرحيق المختوم ص ٩٢.

٢- التحرير والتوير (١٦١/٢٧).

٣- الرحيق المختوم ص ١٠٦.

المبحث الثالث

قصة نوح عليه السلام حسب ورودها في السورة

الذي ينظر إلى القصة نظرة شاملة حسب ورودها في السورة، يجد أن القرآن الكريم في بعض الأحيان يذكر القصة بشكل مختصر، وأحياناً يفصل فيها، وأحياناً يشير إلى حلقة واحدة من حلقات القصة. وهو في كل مرة يأخذ من القصة ما يتناسب مع موضوع السورة. والذي يتأمل فيها يجد نفسه وكأنه أمام موضوع جديد وقصة جديدة يختلف موضوعها عن سابقتها.

لذا سأعرض في هذا المبحث القصة بحسب ورودها في السورة، مبيناً موضوعها ومناسبتها للسورة، حيث إن سياق السورة هو الذي اقتضى التفصيل أو الإجمال أو استعراض بعض الحلقات، ومركزاً على السور التي عرضت القصة أو بعض حلقاتها.

أولاً: سورة الأعراف.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾ قَالَ يَتَّقُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّا اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾ أَوْعِظُكُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْحَنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿١﴾

والملاحظ في هذه الآيات العرض المقتضب لرسالة نوح عليه السلام وخلاصته دعوة قومه إلى عبادة الله محذراً إياهم من عذاب يوم عظيم، ثم رد الملا

من قوم نوح ووصفه بالضلال، ثم حوار نوح لقومه، ثم في النهاية إنجاؤه ومن معه في الفلك... إنها ملخص لقصة نوح في دعوته لقومه.

ولو نظرنا في الموضوع العام لسورة الأعراف نجد أن محور السورة يدور حول مناقشة قضايا العقيدة والإيمان من خلال التاريخ البشري، أما لو نظرنا في موضوع سورة الأنعام لوجدناه يركز في أسلوب عرضه على الجاهلية العربية التي راقت نزول الوحي وبعثة محمد ﷺ. أما في سورة الأعراف فتناقش الموضوع من خلال التاريخ العام منذ بعثة آدم وقبله في قصته مع إبليس وتمر من خلال عدد كبير من الأنبياء ودعوتهم لأقوامهم وعدم استجابة الناس إلا القليل. إنه تاريخ طويل، لكن القضية واحدة وكأنها تتكرر القصة ذاتها مع كل نبي ورسول.

ونتأمل الآيات الأولى من سورة الأعراف والتي تلخص الموضوع العام للسورة.

قال تعالى: ﴿التَّصَّ (١) كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١).

فتشير هذه الآيات إلى قضية أساسية وهي: اتباع ما أنزل من الله والتحذير من عدم الاستجابة والتخويف بالهلاك كما حصل لكثير من القرى التي أهلكت بيئاتها أو أثناء قبولتهم وسط النهار.

ويأتي ختام السورة متناسبا مع المقدمة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٤) وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٥)﴾

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿١﴾ .
 حيث لاحظ اتفاق الخاتمة مع المقدمة، فهي تنص على عبادة الله وحده،
 وقد أشارت المقدمة إلى وجوب اتباع ما أنزل والذي يتمثل في دعوة الرسل
 أقوامهم إلى عبادة الله وحده.

وقد أشارت السورة إلى الكثير من القصص أولها قصة آدم وحواء وقبلها
 قصة إبليس الذي لم يستجب لأمر الله فطرد منها. أما آدم وحواء فأمرنا
 بعدم الأكل من الشجرة فنسيا أمر الله فأهبطا إلى الأرض واستغفرا الله
 فقبل الله توبتهما. ثم حذرهما من كيد الشيطان ...

ثم تعرض السورة نبذة من تاريخ الأنبياء الطويل والذي يتلخص
 في دعوتهم جميعاً إلى عبادة الله وحده دون أحد سواه، فتعرض قصة نوح
 وعاد وثمود ولوط وشعيب ثم قصة موسى، وكلها يجمعها بيان عقاب الله
 لمن لم يستجب لدعوة هؤلاء الأنبياء.

وعليه، فنجد أن سورة الأعراف قد أشارت إلى قصة نوح عليه السلام باختصار
 شديد وبما يتناسب مع السياق العام للسورة.

ثانياً: سورة يونس.

قال تعالى: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ
 مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ
 لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا
 سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾
 فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدْرِبِينَ ﴿٧٣﴾ .

١- الأعراف (٢٠٤-٢٠٦) .

٢- يونس (٧١-٧٣) .

هذا المقطع من قصة نوح عليه السلام أشار إلى حلقة من حلقات القصة، ولم يورد فيها تفصيلاً للقصة. وقد جاء الاستشهاد بهذه الحلقة بعد استعراض جدال طويل بين نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم وقومه الذين أشركوا واستمروا في عنادهم وجدالهم. قال ابن عاشور في بيان مناسبة هذه الحلقة من قصة نوح لما سبق ولسياق السورة: «انتقال من مقارعة المشركين بالحجج الساطعة على بطلان دينهم، وبالدلائل الواضحة على تفنيد أكاذيبهم وتكذيبهم وما تخلل ذلك من الموعظة والوعيد بالعذاب العاجل والآجل والإرهاب، إلى التعريض لهم بذكر ما حلّ بالأمم المماثلة أحوالها لأحوالهم... فإن نوحاً عليه السلام مع قومه مثل لحال محمد صلى الله عليه وسلم مع المشركين من قومه في ابتداء الأمر وتطوره، ففي ذكر عاقبة قوم نوح عليه السلام تعريض للمشركين بأن عاقبتهم كماقبة أولئك، أو أنهم إنما يمتعون قليلاً ثم يؤخذون أخذة رابية»^(١). ويقول سيد قطب: «إن الحلقة التي تعرض هنا من قصة نوح هي الحلقة الأخيرة: حلقة التحدي الأخير مع الإنذار الطويل والتذكير الطويل والتكذيب الطويل. ولا يذكر في هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ولا التفصيلات في تلك الحلقة، لأن الهدف هو إبراز التحدي والاستعانة بالله وحده، ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة، لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة إلى حلقة واحدة، ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة، لأن هذا هو مقتضى السياق في هذا الموضع»^(٢).

ولعل الذي يظهر من خلال استقراء القصص في هذه السورة هو أنه قد تمت الإشارة إلى تذكير نوح المستمر لقومه الذي بين فيه عدم استجابة القوم الذين كانت نهايتهم الغرق، حيث لم يبالوا ولم يستجيبوا لإنذاره،

١- التحرير والتوير (١٣٧/١١).

٢- في ظلال القرآن (٢/١٨١٠).

وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾
وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِمٌ ﴿٣٩﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَقلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾
﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَاهَا مِرْسَاهَا بِإِذْنِ رَبِّي لَعَلَّ غُرُوحًا رِجِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَوِّىْ إِلَى جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾
وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسَّامَاهُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخَافُ أَنْ تُكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَبِّئُهمُ ثُمَّ يَمْسُهُمُ مَوْتٌ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾

في هذه الآيات نجد تفصيلاً لقصة نوح أكثر مما ورد في سورة الأعراف، وكان فيها شيء من الخلاف عما ورد في سورتى الأعراف ويونس.

ففي سورة الأعراف ﴿فَقَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ^(٢) وهنا في سورة هود ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ...﴾ ^(٣) وفي الأعراف وصفه قومه بالضلال،

١- هود (٢٥-٤٩).

٢- الأعراف (٥٩).

٣- هود (٢٦).

أما في سورة هود فقد وصف بأنه بشر وأنه اتبعه أراذلهم. وفي هود ورد تفصيل لمحاورته قومه بعد استمرارهم في العناد وعدم استجابتهم لدعوته، وهذا التفصيل قد أجمل في سورتي الأعراف ويونس. وفي سورة هود يحكي قولهم في طلب العذاب «فأتنا بما تعدنا»، أما في سورة الأعراف وفي يونس قال ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾.

ثم تنتقل القصة إلى مشهد آخر وهو مشهد عذابهم بعد أن أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن. ثم يصنع السفينة فيسخر منه الملائ من قومه، ويستمر في تحذيرهم حتى يأتيهم أمر الله بالغرق...وهنا نجد تفصيلاً لكيفية عذابهم لا نجده في مواطن أخرى. إضافة إلى مشهد هلاك ابنه الذي أنفردت بذكره هذه السورة.

وتختتم القصة بالتعليق عليها بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١) أما في سورة يونس فختمت بقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدْرِكِينَ﴾ (٢).

والمأمل في قصة نوح الواردة في سورة هود يجد المناسبة بين موضوع السورة ومقدمتها وقصة نوح، حيث جاء في أول السورة ﴿الرَّكَانِبُ أُحْمِكَتْ ءَابْنُهُ، ثُمَّ فُضِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (١) ﴿أَلَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (٢) وقد حكى القرآن قول نوح لقومه: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ﴾ (٤) بينما حكى قوله في سورة أخرى «اعبدوا الله...وجاء ختام سورة هود ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنثِثُ بِهِءَ فُوَادِكْ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥) فانظر لهذه الآية

١- الأعراف (٦٤) .

٢- يونس (٧٣) .

٣- هود (٢-١) .

٤- هود (٢٦) .

٥- هود (١٢٠) .

في ختام السورة والآية التي جاءت تعليقاً على القصة في السورة: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعِيبِ نُوحِيَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

وعليه، فإننا نجد عرض القصة في كل سورة عرضاً يتناسب مع موضوع السورة وسياقها.

والملاحظ في سورة هود أنها قد فصلت في حلقات من قصة نوح وفي عذاب قومه وإهلاك ولده، فلعل موضوع السورة يقتضي شيئاً من التفصيل والاستشهاد بالقصص.

وقد ذكر سيد قطب في «الظلال» أن القصص يشكل جسم السورة، فقال: «إن سورة يونس تحتوي على جانب من القصص مجمل... إشارة إلى قصة نوح، وإشارة إلى الرسل من بعده، وشيء من التفصيل في قصة موسى، وإشارة مجملة إلى قصة يونس.. ولكن القصص إنما يجيء في السورة شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها السورة.

أما سورة هود، فالقصص فيها هو جسم السورة. وهو إن جاء شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها، إلا أنه يبدو فيه، استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز» (٢).

لكننا لو نظرنا في مقدمة السورة التي تشير إلى موضوعها، لوجدنا أن ذلك يقتضي عرضاً للقصة وبأسلوب يتفق معها، فنقرأ في بداية السورة: ﴿ الرِّكَابُ أَكْرَمُ مِنْهُ، ثُمَّ نُفِصِلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ (٢) وَإِنْ أَسْتَعَفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ مِنْهَا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ

١- هود (٤٩).

٢- في ظلال القرآن (٤/١٨٤٤).

مُسَى وَيُوتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣١﴾
إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾.

فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ حيث يتناسب ذلك مع قول نوح لقومه:
﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾... ثم قوله: ﴿إِنِّي لَكُرْمٌ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ فيناسبه ما ورد
من بداية قصة نوح: «ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إنني لكم نذير مبين» حيث
بين أنه قد أرسل نوحًا منذرًا لقومه من عذاب أليم في الدنيا والآخرة...
ثم إن نجاة من كان مع نوح فيه بشارة. فالسياق يقتضي الإنذار بالعذاب
والبشارة بالنجاة، ولهذا اقتضى شيئًا من التفصيل في ذلك... ثم إن قوله
تعالى في أول السورة: «وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه...» يقتضي عرض
جانب من القصة فيه استغفار، والذي تجلى في استغفار نوح لنسيانه ذلك
التوجيه الإلهي حيث قال له: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِفُونَ﴾ إلا أن نوحًا عليه السلام ظن أن ابنه من أهله فبين الله
له أنه ليس من أهله، فاستغفر نوح ربه قائلاً: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحْمَتِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْوُحُ أَهْبِطْ
يَسْلَمٌ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَمَتُّهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ (٢)، فكانت نهاية القصة إشارة إلى البشارة لنوح ومن معه،
والنذير لأمم أخرى.

رابعًا: سورة الأنبياء

قال تعالى: ﴿وَنوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٦١﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ

١- هود (٤-١).

٢- هود (٤٧-٤٨).

كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾.

في هذه السورة نجد أن القرآن الكريم قد أشار إلى قصة نوح إشارة سريعة، حيث تضمنت هاتان الآيتان الاستجابة لدعاء نوح وإنجائه وأهله ونصره من القوم الذين كذبوا بآيات الله.

وسورة الأنبياء استشهدت بعدد من قصص الأنبياء والرسل، والتي يلاحظ فيها التفصيل في قصة إبراهيم مع الإشارة إلى بقية الأنبياء: لوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل ويونس وزكريا ومريم عليهم السلام...والذي يلاحظ في هذه القصص ما ختمت به كل حلقة من هذه الحلقات، وهي قضية إنجاء الله لأنبيائه ورسله ولأوليائه. لكن الذي يلفت الانتباه هو التفصيل في قصة إبراهيم دون غيره من الأنبياء، فما الحكمة من ذلك؟

ولعل الحكمة فيها هو أن إنجاء إبراهيم فيه لفت للانتباه أكثر من غيره حيث ألقى في النار فجعل الله النار بردًا وسلامًا وأنجاه منها.

وعليه، فإن السياق يقتضي الإشارة إلى قصة نوح إشارة سريعة دون التفصيل فيها.

والمأمل في موضوع السورة يجد أن السورة قد بدأت بالإشارة إلى إعراض المشركين عن دعوة محمد ﷺ وهم في غفلة ولاهية قلوبهم: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مَن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ وتختتم بالإشارة إلى أنه قد تم إنذارهم ويحذرهم من وقوع ما توعدوا به، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ

١- الأنبياء (٧٦-٧٧) .

٢- الأنبياء (١-٢) .

ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنَّ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَم بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١﴾. وفي ذلك إشارة إلى أن تاريخ الأنبياء واحد في مقابلة الأقسام المعرضين، وفيه إيناس للنبي ﷺ بأنه سيلقى شيئاً من المعارضة كما حصل لقبية الأنبياء، لكنه جعل له سلوى من بيان إنجاء الله لأنبيائه وأوليائه وقت الشدة.

خامساً: سورة المؤمنون

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَوَدَّعَىٰ اللَّهُ أَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترتصبوا به﴾ حتى حين ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرني بما كذبون ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ انزِلني منزلاً مباركاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

قصة نوح عليه السلام الواردة في هذه السورة تتشابه في شكلها العام مع ما ورد في سورتي الأعراف وهود، وفي سورة هود أكثر تفصيلاً مما ورد في الأعراف وفي المؤمنون... إلا أنها تختلف في مضمونها عما ورد في السورتين المشار إليهما.

ففي سورة الأعراف تحكي السورة قول نوح ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٠)، أما هنا في سورة

١- الأنبياء (١٠٩).

٢- المؤمنون (٢٣-٣٠).

٣- الأعراف (٥٩).

المؤمنون: ﴿يَقُولُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(١)، وفي الأعراف وصفه قومه بالضلال... أما في المؤمنون فقد وصفه قومه بأنه بشر يريد أن يتفضل عليهم... وفي سورتى الأعراف والمؤمنون حكى القرآن الكريم قوله ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾. أما في سورة هود فحكى القرآن قوله ﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾. والذي يلاحظ في عرض قصة نوح في سورة المؤمنون أنه تم وصفه من قبل قومه بأنه بشر يريد أن يتفضل عليهم وأنه به جنّة. وكذلك حكى القرآن سبب إعراض من جاء بعد نوح بأنهم قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾^(٢)، وكذلك ما حكاه في قصة موسى حيث قالوا: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ﴾^(٣)... وهذه المقولة نفسها وُصف بها محمد ﷺ من قبل قومه.

وقد عالج القرآن الكريم ذلك، حيث بين صفات المؤمنين في أول السورة وعلق عليه بأنهم يرثون الصدوس وأن الكافرين سيحاسبون على أعمالهم، وختمت السورة في نهايتها بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ...﴾^(٤).

سادساً: سورة الشعراء.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۖ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۖ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۖ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ (١١٠) قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۖ (١١١) قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ (١١٢) إِنْ حَسِبْتُمْ أَنِّي لَوْلَا رَأْيَ رَبِّي لَسْتُ لَكُم بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ (١١٣)﴾

١- المؤمنون (٢٣).

٢- المؤمنون (٣٢).

٣- المؤمنون (٤٧).

٤- المؤمنون (١١٥).

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْسُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ
 الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ
 مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَانجِنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ اغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ
 ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

الذي يظهر في هذه الآيات هو أن نوحًا عليه السلام دعا قومه إلى تقوى الله، وكرر الأمر مرة بعد أخرى، فاستمر قومه بالتكذيب فكانت نهايتهم الغرق وأنجاه الله ومن معه.

فموضوع الآيات هو الدعوة إلى التقوى، بينما الذي يظهر في الآيات السابقة هو الدعوة إلى عبادة الله وأن لا يعبد إلا الله، وهذا ما سبقت الإشارة إليه في سورة الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون. والظاهر أن هذا الذي حكي في هذه السورة جاء في مرحلة متأخرة من حياته في الدعوة، ويشير إليه ما يلي:

أَنْ نُوْحًا عليه السلام دَعَاهُمْ إِلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، بَعْدَ مَا كَانَ قَدْ دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ لَا يَعْبُدَ غَيْرَهُ. وَالتَّقْوَى أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَخَافُهُ وَيَحْذَرُهُ وَقَايَةَ تَقْيِيهِ مِنْهُ، وَمَنْ ذَلِكَ اتَّقُوا النَّارَ وَنُحُوهُ، وَتَقْوَى اللَّهِ تَعْنِي اتِّقَاءَ عَذَابِ اللَّهِ وَسَخْطِهِ وَمَا يَغْضِبُهُ، يَقُولُ ابْنُ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيُّ فِي بَيَانِ مَعْنَى التَّقْوَى: «وَأَصْلُ التَّقْوَى أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَخَافُهُ وَيَحْذَرُهُ وَقَايَةَ تَقْيِيهِ مِنْهُ، فَتَقْوَى الْعَبْدَ لِرَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَخْشَاهُ مِنْ رَبِّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَسَخْطِهِ وَعِقَابِهِ وَقَايَةَ تَقْيِيهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ فَعْلٌ طَاعَتُهُ وَاجْتِنَابُ مَعَاصِيهِ»^(٢).

وعليه، فإن دعوته لهم إلى لتقوى وتكرار ذلك وكذا سياق الآيات يشير إلى استمرارهم في التكذيب وعنادهم في ذلك.

١- الشعراء (١٠٥-١٢١).

٢- جامع العلوم والحكم ص١٢٨.

وردت الإشارة إلى إخوة نوح عليه السلام لهم حيث قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُ نُوحٌ﴾ ولعل المراد بها هنا أخوة المصاهرة، أي بعد ما تزوج منهم، قال الألوسي: ﴿أَخُوهُ نُوحٌ﴾ أي: نسيبهم^(١)، بينما لم يرد وصفه بذلك في سورة هود ولا في الأعراف التي ورد وصف هود أو غيره بالأخوة دون نوح.

ورد من قومه المكذبين وصف أتباع نوح بأنهم الأردلون، وقد ورد ذلك الوصف منهم في سورة هود، لكن الظاهر أنه لم يكن منهم جزم بذلك الوصف، ففي سورة هود: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِرَأْيِ الرَّأْيِ...﴾^(٢)، كما ورد قولهم في سورة هود: ﴿وَمَا زَنَّا لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾. أما هنا في سورة الشعراء فقد ورد منهم جزم بذلك الوصف حيث قالوا: «أنؤمن لك واتبعك الأردلون».

فالظاهر أن ما ورد في سورة الشعراء كان حكاية لحلقة متأخرة عما ورد في سورتَي هود والأعراف.

وسورة الشعراء تستعرض في آيات كثيرة منها تاريخ الأنبياء، حيث بلغ عدد الآيات مائة وثمانين آية تتحدث عن القصص من مائتين وسبع وعشرين آية، يقول سيد قطب: «وجسم السورة هو القصص الذي يشغل ثمانين ومائة آية من مجموع آيات السورة كلها. والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب...»^(٣).

إلا أن الذي يلاحظ في السورة هو غلو هؤلاء الأقوام في التكذيب حتى وصلوا إلى مرحلة التحدي للأنبياء، كما هو حال مشركي قريش مع النبي ﷺ، لذلك بدأ بقصة موسى التي فصل فيها شيئاً من التفصيل مستعرضاً مشهد التحدي من قبل فرعون والسحرة، ثم تعرّض لقصة إبراهيم ونوح

١- روح المعاني (١٠٦/١٩).

٢- هود (٢٧).

٣- في ظلال القرآن (٢٥٨٢/٥).

وهود وصالح ولوط وشعيب... ويشير إلى ذلك ما بدأت به السورة ﴿طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ إِذَا تُنذِرَ إِلَىٰ قَوْمٍ فَأُولَٰئِكَ لِيُذَكَّرَ لَهُ﴾ (١)، وفي ذلك إشارة إلى غلو القوم في الشرك والكفر حتى إن النبي ﷺ كان أن يصل لحد اليأس مما جعله يتحسر أشد الحسرة لعدم إيمانهم فعبّر عن ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ إِذَا تُنذِرَ إِلَىٰ قَوْمٍ فَأُولَٰئِكَ لِيُذَكَّرَ لَهُ﴾ أي مهلك نفسك حسرة وندامة (٢). قال ابن عاشور: «وأحسب أنها نزلت إثر طلب المشركين أن يأتيهم الرسول بخوارق» (٣).

ولذلك ختمت السورة بإنذار عشيرته الأقربين وأن يتوكل على العزيز الرحيم ثم يندد بالشعراء الذين هم من أسباب الضلال في ذلك الوقت، حيث اتخذ بعضهم الشعر للصرف عن القرآن الكريم، كما أنهم وصفوه بأنه شاعر فأراد أن ينبه على الفرق بين النبي ﷺ وبين الشعراء. ومن ثم تخطم السورة بالآية: ﴿وَسِعَ الْعَرْشُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَهُوَ يُبٰسِطُ يَدَيْهِ يُرِىٰ سِيْرَ الْوٰجِعِ الْكٰفِرِ﴾ (٤).

سابعاً: سورة العنكبوت.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٥).

موضوع هاتين الآيتين بيان مدة لبث نوح ﷺ في قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده وتقواه، إلا أنه لم يستجب له إلا القليل.

١- الشعراء (٣-١).

٢- تفسير البيضاوي (٥٣٤/٢).

٣- التحرير والتنوير (٢٠٧/١٩).

٤- الشعراء (٢٢٧).

٥- العنكبوت (١٥-١٤).

وموضوع السورة وسياقها العام يشير إلى أن سنة الله في الدعاة هي في ابتلائهم، لأن في الابتلاء دروساً تربوية مهمة، إذ تعودهم وتربيههم على تحمل الصعاب، وبالتالي تحمل مسؤولية الدعوة، قال تعالى: ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ٣ ﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٤ ﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥ ﴾ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٦ ﴾ (١)، ويأتي ختام السورة متناسباً مع المقدمة التي يتكامل فيها الموضوع المشار إليه في المقدمة: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ٥ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ٦ ﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ٧ ﴾ (٢).

وعليه، فالفتنة والابتلاء سنة الله في إعداد الدعاة، والسبيل هو في الجهاد ضد هذه العقبات، والله تعالى تكفل بهدايته إلى سبيل الحق... والسورة وقع فيها استشهاد بعدد من القصص التي أشارت إلى سنة الله في أنبيائه وإعدادهم عن طريق الابتلاءات والمحن، فتعرضت لنوح وإبراهيم ولوط وشعيب، وذكرت قصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان فاستعرضتها استعراضاً سريعاً بما يصور ألواناً من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان (٣)... وهذه القصص المذكورة تتمثل فيها ألوان من الفتن والعقبات في طريق الدعوة، ففي قصة نوح «تتبدى ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة... وفي قصة إبراهيم مع قومه يتبدى سوء الجزاء وطفيان الضلال، حيث جادلهم بالحجة والمنطق، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: اقتلوه أو حرقوه... وفي قصة لوط يتبدى تبجح الرذيلة واستعلانها

١- العنكبوت (٢-٦).

٢- العنكبوت (٦٨-٦٩).

٣- في ظلال القرآن (٥/٢٧١٨).

وسفورها بلا حياء، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ... وفي قصة شعيب يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل... وتذكّر الإشارة إلى عاد وثمود بالاعتزاز بالقوة والبطر بالنعمة، كما تذكّر الإشارة إلى قارون وفرعون وهامان بطغيان المال واستبداد الحكم وتمرد النفاق... ويعقب على هذا القصص بمثل يضربه لهوان القوى المرصودة في طريق دعوة الله ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ بُيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١) (٢).

إلا أن السورة أشارت إلى قصة نوح إشارة سريعة فذكرت طول مدة لبثه في قومه، ولعل هذا ما يقتضيه سياق السورة، إذ الهدف من الاستشهاد بالقصة هو ذلك، وليس استعراض تفاصيل القصة.

والملاحظ في هاتين الآيتين أنه عبر عن سنوات الدعوة بالسنة والعام، فقال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (٣)، ولعل فيها إشارة إلى أنه لبث فيهم تسعمائة وخمسين سنة فلم يستجب له أحد أو لم يستجب إلا القليل النادر، إلا أنه جاءت الاستجابة بعد ذلك، فأمن من آمن، فلما علم الله أن لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن أخذهم الله بالغرق، وذلك أن لفظ السنة يشير إلى الشدة والقحط، ولفظ العام يشير إلى الرخاء والخير والاستجابة، ولهذا فرق بين اللفظتين «سنة وعام» قال الألوسي: «والنكته في اختيار السنّة أولاً: أنها تطلق على الشدة والجذب بخلاف العام، فناسب اختيار السنّة لزمان الدعوة الذي قاسى النبي ﷺ فيه ما قاسى من قومه» (٤).

١- العنكبوت (٤١) .

٢- في ظلال القرآن (٢٧٢٧/٥) بتصرف.

٣- العنكبوت (١٤) .

٤- روح المعاني (١٤٢/٢٠) .

ثامناً: سورة الصافات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ أَلْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾. (١)

يلاحظ في عرض هذه القصة التعليق عليها بقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، ويظهر هذا التعليق في القصص التي بعدها، كما في قصة إبراهيم وموسى وهارون وإلياس... وفي هذا إشارة إلى جزاء أنبياء الله وأوليائه، حيث إن الله سبحانه لا ينجي أنبياءه فحسب، بل يزيد في ذلك بالنصر والأجر العظيم في الدنيا فضلاً عن الآخرة.

وهذا أمر يتناوله موضوع السورة الذي بدأ بالإشارة إلى الشياطين المردة الذين يُضَدِّفُونَ من كل جانب حتى الذي خطف الخطفة فيتبعه شهاب ثاقب...، ثم انتقل لبيان عقاب الظالمين في الآخرة وبين أن ذلك العذاب جزاء لما كانوا يعملون، لكن عباد الله المخلصين يشيهم بأحسن الثواب مبيئاً أن ذلك هو الفوز الحقيقي ﴿إِنَّ هَذَا لَهُمُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٢)... ثم يأتي التعليق على بيان عاقبة المنذرين وما أعد الله لعباده المخلصين: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٣) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٤)...

ثم يستعرض جانباً من تاريخ الرسل فيتعرض لقصة نوح وإبراهيم مع إسماعيل وموسى مع هارون وإلياس ولوط ويونس... وقد بين جانباً

١- الصافات (٧٥-٨٢).

٢- الصافات (٦٠).

٣- الصافات (٧٢-٧٤).

من ظلمهم وذلك في نسبة البنات إلى الله وأنهم جعلوا في ذلك بينه وبين الجنة نسبا - والجنة جماعة الجن^(١)... ثم يأتي في ختام السورة: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصِرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ ثم يقع إنذار بالعذاب.

وهكذا نجد أن السياق العام للسورة يقتضي الاستشهاد بقصة نوح والإشارة إليها إشارة سريعة لبيان إنجاء الله لعباده من الكرب العظيم وجعل ذريته هم الباقين ومنحه سلاماً وثناءً حسناً، في الآخرين «أي تركنا عليه الثناء الحسن وأبقيناه له فيمن بعده إلى آخر الدهر»^(٢).

تاسعاً: سورة القمر.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنَمَّرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدٍ فُذِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾﴾^(٤).

في هذه الآيات، يرد التعليق على القصة بقوله: «فكيف كان عذابي ونذر»، كما أننا نجد التعليق بذلك على القصص الواردة في هذه السورة والتي تم استعراضها وهي قصة عاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون. كما تظهر عبارة «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر».

١- التحرير والتوير (٩٣/٢٣) .

٢- الصافات (١٧١-١٧٣) .

٣- روح المعاني (٩٩/٢٣) .

٤- القمر ٩-١٧ .

وهذه السورة تعرض فيها جملة من القصص، والذي يقرأها يرى نفسه وكأنه يقرأها لأول مرة، وذلك من خلال عباراتها وألفاظها... ونقرأ من الكلمات في قصة نوح: وازدجر، بماء منهمر، فجرنا الأرض عيوناً، ذات ألواح ودسر... فهذه العبارات والألفاظ لم ترد فيما سبق من سور القرآن الكريم... والسورة تتعرض في موضوعها لمشاهد العذاب الدنيوي للمكذبين بالآيات والنذر.

وابتدأت سورة القمر بالحديث عن انشقاق القمر، ثم أشارت إلى تكذيب المشركين المستمر رغم ما جاءهم من الإنذار من خلال ما ورد في القرآن الكريم. وحادثة انشقاق القمر هي التي حدثت في زمن النبي ﷺ معجزة له على ما ذهب إليه جمهور السلف والخلف^(١). وهو ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من هذه الحادثة، وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يرهم آية فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما^(٢) فقال تعالى:

﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْذُّرُّ ۝٥ ﴾^(٣) ويأتي ختام السورة متناسباً مع المقدمة ومبيناً موضوعها: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ لِّمَنْجٍ بِالْبَصْرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ ۝٤١ ﴾.

وعليه، فالسياق يقتضي عرض نماذج من التاريخ البشري فيها بيان إهلاك الأقسام المكذبين بالنذر يكون فيها تحذيرٌ لمشركي قريش ومن كان

١- فتح القدير (١١٩/٥).

٢- رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٦٨) ومسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٢) والترمذي في التفسير (٣٢٩٦) والنسائي في التفسير (٥٧٤).

٣- القمر (١-٥).

٤- القمر (٥٠-٥١).

على شاكلتهم من أن ينزل بهم اليأس والهلاك والشدة والقحط وأنواع العذاب المدمر. ولذلك استعرضت السورة قصة نوح استعراضاً سريعاً بينت فيها كيف كان هلاك من كذب بالنذر.

عاشراً: سورة نوح

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۝٣ يَعْرِفُوا لَكُمْ مِن دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ وَأَسْتَفْسَفُوا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَفَلْتُمْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ مِنْهَا إِخْرَاجًا ۝١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِيَتَسَلَّكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي هَمَمْتُ أَنْ بَنِيَ قَوْمًا مِّن دُونِكَ وَأَنْبَعُوا مِن لَّدُنِّي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّدُنِّي وَأَكْفَرُوا مَكْرًا كِبَارًا ۝٢١ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٢ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝٢٣ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝٢٤ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٥ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي مِثْلُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تُلَدِّئْهُنَّ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٦ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ۝٢٧﴾ (١).

في هذه السورة عرض لقصة نوح عليه السلام، وقد ورد فيها تفصيلات لم ترد في القصص الأخرى. بدأت السورة ببيان إنذار نوح لقومه حيث أمرهم بعبادة الله وتقواه والدعوة إلى طاعة نوح في ذلك... وقد سبق أن عرض مثل ذلك في سورة أخرى، ففي سورة الأعراف ^(١) والمؤمنون ^(٢) تمت حكاية قول نوح حيث دعاهم إلى عبادة الله. وفي سورة هود ^(٣) دعاهم إلى أن لا يعبدوا إلا الله... وفي سورة الشعراء تم التركيز على تقوى الله وطاعة نوح فيما يدعوهم إليه... لكن التركيز في هذه السورة على بيان أثر اتباعه وعلى بيان الأساليب التي اتبعها نوح لدعوة قومه حيث استخدم معهم كل أساليب الدعوة، وإليك بيان ما عرضته السورة من حلقات لم يعرض في السور الأخرى.

دعاهم إلى عبادة الله وتقواه وطاعة نوح فيما يدعوهم إليه، وقد بين أثر ذلك فقال: ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ ﴾ ^(٤) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿، ولم يتعرض في السور الأخرى لبيان أثر العبادة والطاعة...، وفي سورة هود تم عرض صور من الجدل بين نوح وقومه، لكن ليس فيها أنه بين لهم أثر الطاعة والعبادة.

استمر نوح عليه السلام في دعوة قومه، وهو يغتنم كل فرصة وكل وقت لدعوة قومه بالليل والنهار، حيث غير وقت الدعوة ليكون أرجى في القبول. قال ابن عاشور: «جعل دعوته مظلوفة في زمني الليل والنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصد الوقت الذي يتوسم أنهم فيه أقرب إلى فهم دعوته» ^(٤).

١- الأعراف (٥٩).

٢- المؤمنون (٢٢).

٣- هود (٢٥).

٤- التحرير والتنوير (١٨٠/٢٩).

لم يستجب قوم نوح لدعوته رغم بذله كل جهد واستغلاله لجميع الأوقات. وفي هذه السورة عرضت مشاهد الإعراض، وفيها أنه لم يزداهم دعاؤه إلا فراراً وأنه كلما دعاهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، أي أنه لكثرة ما دعاهم لا يريدون أن يسمعوا كلامه فيما بعد، ولم يكتفوا بذلك بل جعلوا ثيابهم على وجوههم لتلا يروا إشارته فضلاً عن سماع كلامه... وهذه الصورة لهذا المشهد من الإصرار على الإعراض بتلك الكيفية لم تعرض في السور الأخرى التي وردت فيها قصة نوح.

غيّر نوح عليه السلام في أسلوب دعوته فدعاهم بالجهر والإعلان والسر، ولعل الجهر أقوى من الإعلان، وذلك أن إعلان الشيء يعني إظهاره وعدم الإصرار به، أما الجهر فيعطي معنى الإعلان مع العلو، قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: «الجيم والهاء والراء أصل واحد، وهو إعلان الشيء وكشفه وعلوه، يقال: جهرت بالكلام أعلنت به، ورجل جهير الصوت أي عاليه»^(١).

وبين نوح عليه السلام لهم أثر استغفارهم عن الذنوب لإصرارهم على المعصية، حيث يكثر الغيث ويمدهم بالمال والبنين ويجعل لهم جنات ويجعل لهم أنهاراً. وهذا لم يذكر في السور الأخرى.

واستخدم نوح عليه السلام الأسلوب العاطفي ﴿ مَا لَكُمْ لَا تُرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا... ﴾ كما استخدم الأسلوب العقلي ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا... ﴾ وهذا لم يذكر في السور الأخرى.

وذكرت السورة مدى تمسكهم بالأصنام، وسردت أسماء الأصنام التي تمسكوا بها وكانوا يعبدونها. وهذا لم يرد ذكره في السور الأخرى.

١ - معجم مقاييس اللغة (٤٨٦/١) .

ثم تختم السورة بدعاء نوح عليه السلام بأن لا يترك على الأرض أحدًا من الكافرين بعده، لأن الظاهر أن هذا الدعاء كان بعد إهلاك الكافرين من قومه... ثم ختم الدعاء بالمغفرة له ولوالديه ولن دخل بيته مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات... وهي حلقات لم تذكر في السور الأخرى.

المبحث الرابع

قصة نوح عليه السلام حسب كل حلقة من حلقاتها

المتأمل في قصة نوح عليه السلام يجد أن القرآن الكريم حينما يعرض الحلقة من القصة يأخذ جانباً جزئياً بما يتناسب مع موضوع السورة. فإذا كرر عرض تلك الحلقة عرضها من جانب آخر وبما يقتضيه سياق السورة. أو أنه يعرضها مرة واحدة ولا يكررها.

وإليك عرضاً للقصة حسب حلقاتها:

- عبادة الأصنام:

ذكر القرآن الكريم أن لقوم نوح أصناماً كانوا يعبدونها، وهي كما حكى القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا نَدْرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا نَذُرُنَّ وَدَّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^(١).

- دعوة نوح لقومه:

وقد دعاهم نوح عليه السلام إلى عبادة الله، وتكرر ذلك في أكثر من سورة، ففي سورة الأعراف: ﴿فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٢). وفي سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ...﴾^(٣)، وفي سورة المؤمنون: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ...﴾^(٤)، وفي سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقِوُنَ ﴿١٠٦﴾. وفي سورة نوح: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَانْقَبُوا إِلَهُهٖ وَأَطِيعُوا﴾^(٥).

١- نوح (٢٢) .

٢- تفسير أبي السعود (٤٠/٩) .

٣- الأعراف (٥٩) .

٤- هود (٢٦-٢٥) .

٥- المؤمنون (٢٢) .

٦- الشعراء (١٠٦-١٠٧) .

ففي سورتى الأعراف والمؤمنون اقتصر على ذكر دعوته إياهم إلى عبادة الله، فقد كرر ذلك، لكن أسلوب العرض والموضوع مختلفان، حيث رد قومه عليه في الأعراف باتهامه بأنه في ضلال، بينما في سورة المؤمنون اتهموه بأنه بشر... بينما ذكر في سورة هود دعوته لقومه بأن لا يعبدوا إلا الله، أي أن يتركوا عبادة غير الله ويعبدوا الله وحده. وفي سورة الشعراء دعاهم إلى التقوى... بينما في سورة نوح دعاهم إلى عبادة الله والتقوى وطاعة نوح فيما يدعوهم إليه.

- أسلوب نوح في الدعوة:

استخدم نوح كل الوسائل والأساليب في دعوة قومه، فلعلهم يكونون في موطن أو وقت آخر أكثر استجابة، لكن النتيجة واحدة، وذلك على النحو الآتي:

- الرد على اتهاماتهم له:

ففي الأعراف اتهموه بالضلال، فرد عليهم نافيًا عنه الضلال وأنه رسول من رب العالمين، ثم أنكروا عليهم تعجبهم أن يأتيهم ذكر من ربهم على يد رجل منهم^(١).

وفي سورة هود اعتذروا عن اتباعه بأنه لم يتبعه سادة القوم بل اتبعه الأراذل، فطلبوا منه أن يطردهم، فرد عليهم قائلاً لهم: من ينصرنى من الله إن طردتهم...^(٢) وفي سورة الشعراء لما قالوا له: اتبعك الأراذلون، رد عليهم قائلاً: وما علمي بما كانوا يعملون إذ حسابهم على الله^(٣) فالملحوظ أنه قد تكرر ذكر افتراءهم بأنه اتبعه الأراذلون، ففي سورة هود رد عليهم بقوله من ينصرنى من الله إن طردتهم، وفي الشعراء رد عليهم بقوله: وما علمي بما كانوا يعملون.

١- الأعراف (٦٢-٦٤).

٢- هود (٣٠).

٣- الشعراء (١١١-١١٤).

وقد استخدم كل الوسائل والأساليب، حيث دعاهم بالليل والنهار ثم دعاهم جهاراً ثم أعلن وأسر لهم فلم يفدهم ذلك، وهذا ورد في سورة نوح فقط^(١).

- مدة لبثه في الدعوة

بقي يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهذا لم يرد إلا في سورة العنكبوت^(٢).

- موقف قوم نوح من دعوته

ذكر القرآن الكريم عدداً من مواقف وصور التكذيب لنوح في دعوته، ففي الأعراف: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٣)، وفي سورة هود: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ إِلَّا تَبْعًا إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادْيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾^(٤)، ولما جادلهم ورد عليهم في طلبهم أن يطرد هؤلاء الذين سموهم «أراذل»، طلبوا أن يأتيهم بما يعدهم من العذاب ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَدْتَنَا فَأَكَرْتِ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٥)، أما في سورة المؤمنون: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَوْنَهُ بِهٖ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾^(٦)،

١- نوح (٥-١٠).

٢- العنكبوت (١٤).

٣- الأعراف (٦٠).

٤- هود (٢٧).

٥- هود (٣٢).

٦- المؤمنون (٢٤-٢٦).

وفي سورة الشعراء ﴿ قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَاتِنَا مِنَ السَّمَاءِ كَمَا أَنْزَلْتَ مِنَ السَّمَاءِ آيَاتَ لِقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١)، فلما رد عليهم في دعواهم قالوا: ﴿ قَالُوا لَنْ نَمُنَّ بِكَ مَا نَمُنُّ بِآبَائِنَا وَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُ مِنْ دُونِكَ كَافِرُونَ ﴾ (٢)، وفي سورة القمر: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ (٣)، وفي سورة نوح يحكي قول نوح في بيان موقف قومه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبُعَهُمْ فِيْ آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (٤)، ثم يذكر موقفهم في النهاية: ﴿ وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ الْهَيْكُلَ وَلَا نَذَرُ وَلَا سَوْآتَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (٥).

ففي سورة الأعراف وصفوه بالضلال. وفي سورة هود وصفوه بأنه بشر وأنه اتبعه أراذل القوم واستتجوا من ذلك أنه وقومه كاذبون، وانتهى الأمر في أنهم طلبوا منه بأن يأتيهم بما يعدهم من العذاب. وفي سورة المؤمنون وصفوه بالجنون وتواصوا بالتربص به، أما في سورة الشعراء فقد توعدوه بالرجم. وفي سورة القمر وصفوه بالجنون وزجروه عن دعوتهم حتى ترك دعوتهم ولجأ إلى الدعاء عليهم (١). أما في سورة نوح فإن دعوته لهم زادتهم فرارًا، وكلما دعاهم جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا منه شيئًا، واستغشوا ثيابهم، أي تغطوا بها لئلا يروه كراهة النظر إليه، أو لئلا يعرفهم فيدعوهم (٧). ثم انتهى الأمر بدعوة بعضهم البعض إلى التمسك بعبادة الأصنام.

١- الشعراء (١١١).

٢- الشعراء (١١٦).

٣- القمر (٩).

٤- نوح (٥-٧).

٥- نوح (٢٢).

٦- تفسير البحر المحيط (١٧٥/٨).

٧- تفسير البيضاوي (٤٥٠/٢).

- دعاء نوح على قومه:

لما بذل نوح كل جهده في دعوة قومه، واتهموه بأنواع الاتهامات، حاورهم ورد افتراءهم، فأصروا وتمسكوا بأصنامهم وتربصوا به وهددوه بالرجم، عندها توجه إلى الله يشكو قومه. ففي سورة هود توعدهم بالعذاب، فقالوا: ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، فردّ عليهم إنما يأتيكم به الله إن شاء^(١). وفي سورة المؤمنون لما اتهموه بأن به جنة وتربصوا به قال رب انصرني بما كذبتون^(٢)، وفي الشعراء لما كذبه قومه قال: ﴿فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَبِحَجِّيْ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، وفي سورة القمر: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾^(٤)، وفي سورة نوح قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا﴾^(٥).

فالملاحظ في هذه الآيات تعدد الدعوات عليهم، ففي الشعراء طلب الفتح، وفي نوح طلب أن لا يترك الله على الأرض كافراً، بينما في سورتَي المؤمنون والقمر طلب النصر من الله، وقد تكرر طلب النصر لكنهما مختلفان، ففي سورة المؤمنون اتهموه بأنه بشر وأنه مجنون وطلبوا من بعضهم البعض أو من سفهائهم أن يتربصوا به، فدعا ربه أن ينصره بما كذبه به. أما في سورة القمر فقال إني مغلوب فانتصر، فهي مرحلة أبعد من التكذيب، وليست الغلبة لهم غلبة حجة وبرهان، إنما لم يتركوا له مجالاً آخر للدعوة، فتربصوا به وهددوه بالرجم فكان أمراً يمكن احتمالها منهم، لكنهم لما جعلوا أصابعهم في آذانهم فلم يسمعون إليه، وجعلوا ثيابهم أغشية لئلا يروه أو لئلا يراهم فيدعوهم، عندها شعر بأنه مغلوب، فالدعاء ان مختلفان، فالأول طلب النصر من التكذيب والثاني

١- هود (٢٢-٢٣) .

٢- المؤمنون (٢٥-٢٦) .

٣- الشعراء (١١٨) .

٤- القمر (١٠) .

٥- نوح (٢٦) .

طلب النصر من الغلبة... ثم إن النصر غير الفتح، فالنصر يفيد معنى العون، أما الفتح فهنا بمعنى الحكم، أي: احكم بيني وبينهم^(١) وفي الأخير طلب إهلاك جميع الكافرين.

- صنع السفينة

مشهد صنع السفينة وما رافقه من سخرية الكافرين ورد في سورة هود^(٢) وأشير إليه إشارة في سورة المؤمنون^(٣) وفي سورة القمر^(٤).

- الطوفان

ورد الحديث عن كيفية حصول الطوفان في سورتي هود والقمر^(٥)، لكن الذي ورد في سورة القمر لم يرد في سورة هود، ففي سورة القمر ﴿فَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَّرٍ...﴾^(٦)، فصار الماء ينزل من السماء بشدة، وتفجرت الأرض كلها عيوناً فصار ينبع من كل أنحاء الأرض والتقى ماء السماء بماء الأرض حتى صارت الأمواج كالجبال... وفي سورة هود تم الانتقال مباشرة إلى مشهد أنه صارت الأمواج كالجبال.

- ولد نوح:

اختار ابن نوح أن يبقى مع الكافرين ولم يركب معه في السفينة رغم طلب نوح من ولده ذلك، فأصر على البقاء مع الكافرين، ففرق معهم، ولم يرد الحديث عنه إلا في سورة هود^(٧).

١- فتح القدير (١٠٦/٤)، التحرير والتشوير (١٧١/١٩).

٢- هود (٢٧-٢٩).

٣- المؤمنون (٢٧).

٤- القمر (١٢).

٥- هود (٤٢-٤٥) والقمر (١١-١٢).

٦- القمر (١١-١٢).

٧- هود (٤٢-٤٥).

- امرأة نوح:

تحدث القرآن الكريم عن أن امرأة نوح التي خانته، فقال: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِن عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾^(١). والخيانة منهما لم تكن بالزنا ونحوه، إنما كانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه، وقد وقع الإجماع على أنه ما زنت امرأة نبي قط^(٢) وقد ورد تفسير الخيانة بما ذكر عن ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير^(٣) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(٤) وآخرون^(٥). ولم يرد حديث عن امرأة نوح إلا في سورة التحريم.

وعليه، فإن القرآن الكريم إذا كرر الحديث عن حلقة من حلقات القصة، فإنه يعرضها عرضاً جديداً، فإما أن يذكر مشهداً من الحلقة لم يذكره في الحلقات الأخرى أو يغير الأسلوب بما يكون فيه استخلاص عبرة جديدة، وقد يكرر أمراً ما لأهميته كما في دعوة نوح قومه إلى عبادة الله، وذلك للتأكيد على بيان الهدف الأسمى لدعوته، ومع ذلك فإنه يعرض بأسلوب جديد. والمرء حينما يتأمل ذلك يجد التنوع بما يتناسب مع موضوع السورة والهدف من الاستشهاد بتلك الحلقة.

١- التحريم (١٠) .

٢- فتح القدير (٢٥٣/٥) .

٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٠/١٤) .

٤- المستدرک على الصحيحین (٤٩٦/٢) .

٥- الدر المنثور في التفسير المأثور (٣٧٦/٦) .





- ١- الشهود الحضاري للأمم الوسط في عصر العولمة.
د. عبد العزيز برغوث
- ٢- عينان مطفأتان وقلب بصير (رواية).
د. عبد الله الطنطاوي
- ٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.
د. محمد إقبال عروي
- ٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.
د. الطيب برغوث
- ٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .
د. سعاد الناصر (أم سلمى)
- ٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.
د. مصطفى قطب سانو
- ٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.
د. عبد الكريم بوفرة
- ٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.
د. إدهام محمد حنش
- ٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.
د. محمود النجيري

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

_____ د. محمد كمال حسن

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

_____ د. يحيى وزيري

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

_____ د. عبد الرحمن الحجري

١٣- ومنها تتفجر الأنهار (ديوان شعر).

_____ الشاعرة أمينة المريني

١٤- الطريق... من هنا.

_____ الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

_____ د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

_____ أ. فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

_____ د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

_____ د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي

_____ د. ثرية أقصري

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامية في النقد والإبداع.

_____ د. عمر أحمد بوقرورة

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

_____ د. أبو أمامة نوار بن الشلي

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

_____ د. حلمي محمد القاعود

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

_____ أ. د. سمير عبد الحميد نوح

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

_____ د. أحمد الريسوني

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

_____ د. نجم الدين قادر كريم الزنكي

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

_____ د. حسن الأمراني

_____ د. محمد إقبال عروي

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

_____ الروائي/ عبد الباقي يوسف

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ. د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء.

أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم.

د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضاوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

د. عبد الهادي دحاني _____

٣٨- شعر أبي طالب في نصرته النبي ﷺ.

د. محمد عبد الحميد سالم _____

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

د. حمدي بخيت عمران _____

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

أ.د. موسى العرياني _____

د. ناصر يوسف _____

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

الشاعر يس الفييل _____

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

د. عبد الغفور مصطفى جعفر _____

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

د. مصطفى بن حمزة _____

٤٤- في مدارج الحكمة (ديوان شعر).

الشاعر وحيد الدهشان _____

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثة.

د. فاطمة خديد _____

٤٦- في ميزان الإسلام.

د. عبد الحليم عويس _____

٤٧- النظر المصاحفي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح _____

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة _____

٤٩- القيم الروحية في الإسلام.

د. محمد حلمي عبد الوهاب _____

٥٠- تلاميذ النبوة (ديوان شعر).

الشاعر عبد الرحمن العشماوي _____

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د/ فؤاد البنا _____

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

د. فريد شكري _____

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب _____

٥٤- مسار العمارة وأفاق التجديد .

م. فالح بن حسن المطيري

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

د. وصفي عاشور أبو زيد

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

د. وليد إبراهيم القصاب

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

د. خديجة إيكير

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

د. الحسين زروق

٦٠- من أدب الوصايا.

أ. زهير محمود حموي

٦١- سنن التداول ومآلات الحضارة.

د. محمد هيشور

٦٢- نظام العدالة الإسلامية في نموذج الخلافة الراشدة.

د. خليل عبد المنعم خليل مرعي

٦٣- التراث العمراني للمدينة الإسلامية.

د. خالد عزب _____

٦٤- فراشات مكة... دعوها تحلق.. (رواية).

الروائية/ زبيدة هرماس _____

٦٥- مباحث في فقه لغة القرآن الكريم.

د. خالد فهمي _____

د. أشرف أحمد حافظ _____

٦٦- محمود محمد شاكر: دراسة في حياته وشعره.

د. أماني حاتم مجدي بسيسو _____

٦٧- بوح السالكين (ديوان شعر).

الشاعر طلعت المغربي _____

٦٨- وظيفية مقاصد الشريعة.

د. محمد المنتار _____

٦٩- علم الأدب الاسلامي.

د. إسماعيل إبراهيم المشهداني _____

٧٠- الكتاب وصناعة التأليف عند الجاحظ.

د. عباس أرحيلة _____

٧١- وسائلية الفقه وأصوله لتحقيق مقاصد الشريعة.

د. محمد أحمد القياتي محمد _____

٧٢- التكامل المعرفي بين العلوم.

د. الحسان شهيد _____

٧٣- الطفولة المبكرة الخصائص والمشكلات.

د. وفقى حامد أبو علي _____

٧٤- أنا الإنسان (ديوان شعر).

الشاعر يوسف أبو القاسم الشريف _____

٧٥- مسار التعريف بالإسلام في اللغات الأجنبية.

د. حسن عزوزي _____

٧٦- أدب الطفل المسلم.. خصوصية التخطيط والإبداع.

د. أحمد مبارك سالم _____

٧٧- التغيير بالقراءة.

د. أحمد عيساوي _____

٧٨- ثقافة السلام بين التأصيل والتحصيل.

د. محمد الناصري _____

٧٩- ويزهر السعد (ديوان شعر).

الشاعر محمد توكلنا _____

٨٠- فقه البيان النبوي.

أ. محمد بن داود سماروه _____

٨١- المقاصد الشرعية للوقف الإسلامي.

د. الحسن تركوي

٨٢- الحوار في الإسلام منهج وثقافة.

أ. د. ياسر أحمد الشمالي

٨٣- أسس النظام الاجتماعي في الإسلام.

د. عبد الحميد عيد عوض

٨٤- حروف الإبحار (ديوان شعر).

الشاعر عصام الغزالي

٨٥- معالم منهجية في تجديد خطاب الفقه وأصوله.

د. مسعود صبري

٨٦- قبسات من حضارة التوحيد والرحمة.

أ. ممدوح الشيخ

٨٧- لقاء قريب (رواية).

الروائية مياسة علي عبدة النخلاني

٨٨- مقاصد الشريعة بين البسط والقبض.

د. محمد بولوز

٨٩- مدائن الصحو (ديوان شعر).

الشاعر محيي الدين صالح

٩٠- الفن والجمال من النزوع الشكلاني إلى التأصيل الرسالي.

د. عبد الجبار البودالي _____

٩١- دوائر الحياة (مجموعة قصصية).

أ. ماجدة شحاتة _____

٩٢- علم أصول الفقه ودوره في خدمة الدعوة.

د. عبد الرؤوف مفضى خرابشة _____

٩٣- مواسم الخصب (ديوان شعر).

الشاعر محمد يونس _____

٩٤- مفهوم التصديق والهيمنة في القرآن الكريم.

د. نعيمة لبداوي _____

٩٥- موطأ الإمام مالك واعتناء العلماء به.

د. محمد عبد الله حيّاني _____

٩٦- فصول في بيان القرآن الكريم.

د. محمود أحمد الأطرش _____

نهر متعدد.. متجدد

هذا الكتاب

وللقرآن الكريم خاصيته اللغوية التي تميزه عن لغة البشر مهما بلغوا في الفصاحة والبيان. ودراسة لغة القرآن الكريم تقتضي التعامل معه على أنه كلام الله وأن كل حرف وكل كلمة جاءت في موضعها اللائق بها، وأنه لا ينوب مكانه أفاضل أخرى، والتي إذا تغيرت لم تؤد المعنى الذي يقصده القرآن الكريم. كما يقتضي ذلك بيان سر كل حرف وكل كلمة في موضعها الذي لا يؤديه غيرها...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

www.islam.gov.kw/thaqafa